

كتابى
٢١
الجزء الثالث
الحرب والسلام
القصة الخالدة لـ «تولستوى»
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد

الجزء الثالث



الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

- ١٣ -

وفى نفس تلك الليلة ، بعد أن استأذن بلكونسكى Bolkonsky من وزير الحرب ، رحل لينضم إلى الجيش ، وهو لا يدرى أين يمكن أن يجده ، ومخاطراً بأن يقع فى أيدى الفرنسيين فى طريقه إلى كرمس Krems

وفى برين Brünn كان البلاط كله . وكل من لهم صلة به ، يحزمون أمتعتهم . وكانت الحقائب الثقيلة قد أرسلت بالفعل إلى أولموتز Olmütz . وبالقرب من اسلسدورف Esseladorf التقى الأمير أندريه على الطريق بالجيش الروسى الذى كان يتحرك بأقصى سرعة وفى أتم حالات الفوضى . وكان الطريق شبه مسدود بعربات الأمتعة ، بحيث لم يكن المرور فى عربة ممكناً ، فحصل الأمير أندريه على حصان وجندى قوازقى من الضابط الذى كان يقود القوزاق ، وشق طريقه وهو جائع مجهد بين عربات الأمتعة ، ومضى يبحث عن القائد العام وأمتعته الخاصة .. وبلغته أسوأ الشائعات عن وضع الجيش وهو ماض فى طريقه ، وأكدت له هذه الشائعات مشاهدة الجيش الفار فى فوضى .

وتذكر كلمات بونابرت وهو يخاطب جيشه فى بداية هذه الحملة :

— أما عن ذلك الجيش الروسى الذى أتى به الذهب الإنجليزى

من أقاصى المعمورة ، فسوف نوقع به مثل هذا المصير (مصير أو لم Ulm) .

وأيقظت فيه هذه الكلمات مشاعر الإعجاب بعبقرية بطله ، فكان إحساساً بالزهو ممزوجاً بالخزى فى آن واحد ، مع الأمل فى المجد . وقال لنفسه :

— وماذا لو لم يبق أمامى إلا أن أموت ؟ إن كان ولابد فلن أقصر عن الشأو !

ونظر الأمير أندريه بازدراء إلى الكتل التى لا نهاية لها من السرايا ، وعربات الأمتعة من جميع الأشكال ، وكل منها تتبع الأخرى فى صفوف ثلاثية ورباعية تسد الطريق . وعلى كل جانب ، ومن الأمام والخلف ، وحيثما أرهفت السمع كان يسمع من كل اتجاه عجيج العربات ،وقعقعة العجلات ، وعربات المدافع ، ووقع حوافر الخيل ، وفرقعة السياط ، وصياح الحوذية ، وسباب الجنود و « المراسلات » والضباط . وعلى جانبى الطريق رأى الخيول التى سقطت ، ورأى — أحياناً — جثثها المسلوخة ، والعربات المحطمة ، وقدجلس فوقها جنود فرادىَ فى انتظار شىء ما ، وجماعات من الجند المبعثَرين الذين ضلوا عن سراياهم ، وهم يتجهون إلى القرى المجاورة أو عائدين منها يحملون الدواجن أو يسحبون الأغنام ، أو يحملون أكداس الدريس أو أكياس المؤن من أى نوع . وحيثما كان الطريق صاعداً التل أو هابطاً منه كان الزحام أشد ، ويعلو صياح كالهدير

لا ينقطع : والجنود الذين غاصوا إلى ركبهم فى الوحل يتشبثون بالبنادق ويتعلقون بالمدافع وسط فرقعة السياط ، وانزلاق الحوافر ، وتمزق الأعنة والصياح الذى يشق الحناجر . والضباط المشرفون على هؤلاء الجنود وتحركاتهم يذهبون ويجيئون فوق جيادهم أمام القوافل وخلفها .

وتذكر بلكونسكى كلمات بيليبين Bilibin :

— هاك الجيش المقدس !

وحث جواده إلى قافلة وفى نيته أن يسأل أحد هؤلاء الرجال أين عساه يجد القائد العام؟وإذا بعربة غريبة تظهر أمامه مقبلة يجرها حصان واحد وقد جهزها الجنود بما وصلت إليه أيديهم ، فبدت مزيجاً من عربة النقل وعربة الركوب ، وكان يقودها جندى، ووراء حاجزها الجلدى جلست امرأة تحت الأغطية، وقد تدثرت بالشيلان. واقترب أندريه وكان على وشك توجيه الخطاب إلى الجندى عندما استرعت انتباهه صرخات المرأة التى فى هذه المركبة . ووجه الضابط الذى يقود القافلة ضربة إلى الجندى الجالس فى مقعد الحوذى ، لأنه حاول تقدم الآخرين ، ووقع السوط على غطاء المركبة فصرخت المرأة صرخة ثاقبة . ولما أبصرت الأمير أندريه أطلت من تحت الغطاء وأخرجت ذراعيها النحيلتين من تحت الشيلان ولوحت بهما وصرخت :

— سيدى الياور !... ناشدتك الله .. ارحمنى !.. ماذا سيحدث

لنا ؟ أنا زوجة طبيب الكتيبة السابعة القناصة ... وهم لا يريدون أن يسمحوا لنا بالمرور ، وقد تخلفنا ، وضللنا عن رهطنا ...

وصاح الضابط الغاضب بالجندى :

— سأجلدك حتى أفرى لحمك وعظامك ! ارجع ! ارجع بهذه العاهرة !

فصرخت زوجة الطبيب :

— احمنا يا سيدى ! ما معنى هذا ؟

فقال الأمير أندريه متوجهاً نحو الضابط :

— أرجوك أن تسمح لهذه العربة بالمرور . أما ترى أنها امرأة ؟

فرمقه الضابط ولم يجب ، والتفت إلى الجندى :

— سأعلمك كيف تزاحم ؟ ارجع ! إلى الوراء !

فقال الأمير أندريه وهو يزم شفتيه :

— دعها تمر ، قلت لك !

فاستدار إليه الضابط بغضب تفوح منه الخمر :

— ومن أنت ؟ من أنت ؟ أتراك (وصارت نبرته مهينة) من القيادة ؟ أنا القائد هنا ، لا أنت . (واستدار إلى الجندى) ارجع إلى الوراء وإلا فرمتك فرماً !

وكان واضحاً أن هذا التعبير يطيب للضابط . وقال صوت فى المؤخرة :

— لقد زجر الياور الصغير زجراً عنيفاً !

ورأى الأمير أندريه أن الضابط فى حالة سكر بين وغضب جائح ، وهى حالة لا يتذكر صاحبها ولا يعى ما يقول . وأدرك أن حمايته لزوجة الطبيب فى العربة الغريبة الشكل تعرضه لما يخشاه أكثر من أى شىء فى الدنيا ، وهو السخرية . ولكن غريزته قالت له شيئاً آخر ، فما كاد الضابط ينطق بتلك الكلمات حتى ركب إليه الأمير أندريه بوجه ملتو بالغضب الجنونى ورفع سوط ركوبه ، وقال له وهو يباعد بين الكلمات :

— دعهم ... يمرون !

فطوح الضابط ذراعيه وأسرع بالابتعاد على جواده وهو يزمجر :

— هذا كله من أفعالهم ... ضباط الأركان هؤلاء ... كل هذه الفوضى سببها هم ! افعل ما شئت !

ومن غير أن يرفع الأمير أندريه عينيه أسرع يهرب من زوجة الطبيب التى راحت تدعوه منقذها . وانصرف وهو مشمئز من كل تفصيلات هذا المشهد ، وركض جواده نحو القرية التى قيل له إن القائد العام موجود فيها .

ولما وصل إلى القرية ترجل عن جواده ودخل أول بيت وفى نيته أن يستريح لحظة على الأقل ، ويأكل شيئاً ، ويرتب كل الانطباعات المؤلمة والمخزية التى كانت تعذبه . وقال فى نفسه وهو يتجه إلى نافذة أول بيت :

— هذه حفنة من الحثالة الأوغاد وليست جيشاً ...

وإذا بصوت مألوف يناديه باسمه . فالتفت . فإذا وجه نسفتسكى Nesvitsky الجميل يطل عليه من نافذة صغيرة . وكان نسفتسكى يمضغ شيئاً فى فمه الرطب ويشير إليه ويدعوه للدخول صائحاً :

– بلكونسكى ! بلكونسكى ! ألا تسمعنى ؟ أسرع !

ولما دخل الأمير أندريه البيت وجد نسفتسكى وياورا آخر يتناولان الطعام . والتفتا إليه يسألانه ألديه أى أخبار ؟ وعلى وجهيهما قرأ الأمير أندريه الفزع والقلق . وكانت هذه الأمارات واضحة على الخصوص على محيا فسفتسكى ، الذى كان فى العادة يفيض بالضحك . وسألهما بلكونسكى :

– أين القائد العام ؟

فأجابه الياور :

– هنا فى هذا البيت .

– لقد سألتكما لأنى لا أعرف شيئاً سوى أننى وجدت عناء كبيراً فى الوصول إلى هنا .

فقال نسفتسكى :

– وكم من أمور حدثت هنا يا فتاى ! فظائع ! لقد أخطأت عندما سخرت من ماك Mack . وسيحدث لنا ما هو أسوأ .. ولكن اجلس أولا وكل شيئاً .

وقال الياور الآخر :



ومن غير أن يرفع الأمير أندريه عينيه أسرع يهرب من زوجة الطبيب التى راحت تدعوه منقذها ..

— لن تجد حقائبك الآن أو أى شىء يا أمير ، والله أعلم ماذا حدث لبيوتر Piotr

— وأين القيادة العـامة ؟

— ستقضى الليل فى زنايم Znaim

وقال نسفتسكى :

— وأنا حملت كل ما أريد على حصانين ، فى حزم متينة تصلح للفـرار حتى جبال بوهيميا على الأقل . الأمور تسير من سيء إلى أسوأ يا فتاى . ولكنى أحسبك مريضاً ، فأنت ترتجف بشدة .

فقـد لاحظ نسفتسكى أن الأمير أندريه كان يرتجـف وكأنه يلمس بطارية مجلفنة . وأجابه الأمير أندريه قائلا :

— لا . أنا بخير .

فقد تذكر فى تلك اللحظة حادثة زوجة الطبيب وضابط النقل ، وسأل :

— ما الذى يصنعه القائد العام ها هنا ؟

فقال نسفتسكى :

— لا أستطيع أن أفهم أى شىء .

فقال الأمير أندريه :

— أنا أعرف شيئاً واحداً ، أن الحال مقزز .

ثم توجه إلى البيت الذى به القائد العام . ومر بعربة كتوزوف Kutuzov والجياد المنهكة لحاشيته ، والقوزاق الذين يتكلمون

بصوت عال ، ودخل إلى الحجرة الخارجية . وكان كتوزوف نفسه — كما قيل للأمير أندريه — فى الحجرة الداخلية من ذلك الكوخ مع الأمير بجراتيون Bagration وفيـاروتر Weierother ، وكان هذا الأخير هو القائد النمسوى الذى حل محل شميت Schmidt وفى الحجرة الخارجية كان كزلوفسكى Kozlovsky مقعياً على عقبيه أمام كاتب للنسخ ، وكان هذا الكاتب جالساً إلى برميل مقلوب يكتب بسرعة وقد شمر عن كميه . وكان وجه كزلوفسكى مهموماً ، ويبدو عليه هو أيضاً أنه لم ينم طول الليل ،ونظر إلى الأمير بلكونسكى ولم يهز له رأسه ، ومضى فى الإملاء على النساخ :

— السطر الثانى ... جاهز ؟... رماة القنابل اليدوية آلاى كييف ، وآلاى بودولفسكى Podolosky .

وقال الكاتب بغلظة وغضب ، وهو ينظر إلى كزلوفسكى :

— لا تسرع هكذا يا صاحب العزة !

ومن خلال الباب سمع فى تلك اللحظة صوت كتوزوف حاداً ساخطاً ، وأصواتاً أخرى غير مألوفة تقاطعه . وكانت هـذه الأصوات ، وعدم الانتباه أو الشرود الذى رمقه به كزلوفسكى ، وفظاظة ذلك الكاتب ، وأن كزلوفسكى والكاتب جالسان حـول برميل مقلوب على الأرض ، على مسافة جد قصيرة من القائد العام ، وأن القوزاق الممسكين بأعنة الجياد كانوا يضحكون ضحكاً عالياً

هكذا أمام النافذة . كل هذا جعل الأمير أندريه يحس أن كارثة خطيرة تحوم فوق رءوسهم .

والتفت أندريه إلى كزلوفسكى ووجه إليه أسئلة سريعة ملحة، فقال :

— لحظة واحدة يا أمير . إن موقف قوات بجراديون ...

— وماذا عن التسليم ؟

— لا شيء من هذا . فقد أعدت الترتيبات لخوض معركة !

فاتجه الأمير صوب الباب الذى تصل منه الأصوات ، ولكن فى اللحظة التى هم فيها أن يفتح الباب توقفت الأصوات فى الحجرة ، وانفتح الباب من تلقاء نفسه ، وظهر فى فتحة الباب كتوزوف بأنفه الذى يشبه منقار النسر ووجهه البدين القصير . وكان الأمير أندريه واقفاً قبالته مباشرة ، ولكن كان واضحاً من عين كتوزوف الوحيدة المبصرة أن التفكير والقلق ألقيا على وجهه غلالة حجبت عنه المرئيات ، فنظر فى وجه ياوره ولم يعرفه ، وخاطب كزلوفسكى قائلا :

— هل فرغت ؟

— بعد ثانية واحدة يا صاحب السعادة .

وبرز إلى خارج الغرفة بعد القائد العام بجراتيون ، وهو رجل قصير نحيف ، لم يتقدم فى السن بعد له وجه ثابت الملامح ينبى عن

قوة العزيمة . وقال الأمير أندريه للمرة الثانية بصوت مرتفع هذه المرة ، وهو يقدم إلى كتوزوف مظروفاً :

— يشرفنى أن أقدم نفسى !

— آه ! من فيينا ؟ عظيم جداً ! فيما بعد ! فيما بعد !

وخرج مع بجراتيون إلى الدرج الأمامى ، وقال له :

— إلى اللقاء يا أمير ! ليكن المسيح معك ! ولتجلب لك بركاتى النصر !

ورق وجه كتوزوف فجأة ، وطفرت الدموع إلى عينيه ، وبذراعه الأيسر جذب بجراتيون إليه ، وبيده اليمنى التى فيها خاتم رسم الصليب فوقه بإيماءة يبدو أنه تعود عليها ، وقدم له خده القصير البدين ، ولكن بجراتيون قبله على عنقه ، وكرر كتوزوف بركاته واتجه صوب عربته ، وقال لبلكونسكى :

— اركب معى !

— يا صاحب السعادة المبجل ، كنت أتمنى أن أكون ذا نفع هنا . اسمح لى أن أبقى فى فيلق الأمير بجراتيون .

فقال كتوزوف وقد لاحظ أن بلكونسكى يتلكأ :

— اركب ! أنا نفسى بحاجة إلى ضباط أكفاء !

وجلسا فى العربة التى سارت بهما بضع دقائق فى صمت ، ثم قال بلهجة الاستبصار الذى يتميز به كبار السن ، كأنما كان يرى كل ما يدور فى قلب بلكونسكى :

— لم يزل أمامنا الكثير . الكثير جداً من كل نوع .. وإذا عاد عشر هذا الفيلق سالماً فسوف أشكر الرب !

فنظر الأمير أندريه إلى كتوزوف ، وبلا شعور لفت نظره أن آثار ندبة عارض وجهه كانت مغسولة بعناية ، وهى الندبة التى تخلفت عن رصاصة اخترقت رأسه فى « اسميل » Ismail ، كمالفتت نظره فجوة عينه الفارغة، التى لا تبعد عنه أكثر من ياردة واحدة.

وقال الأمير فى نفسه :

— أجل . من حقه أن يتكلم بهذا الهدوء عن دمار الرجال .

ثم قال بصوت مرتفع :

— ولهذا طلبت وأطلب منك أن ترسلنى مع هذا الفيلق .

فلم يرد عليه كتوزوف ، وبدا عليه أنه نسى ما قيل له، وجلس غارقاً فى أفكاره . وبعد خمس دقائق خاطب كتوزوف الأمير أندريه وهو يهتز مع اهتزاز لوالب العربة ، وقد اختفى من وجهه كل أثر للانفعال . وبسخرية خفيفة سأل الأمير أندريه عن تفصيلات مقابلته للإمبراطور ، وعن التعليقات التى كان قد سمعها فى البلاط عن اشتباك كريمس Krems وعن السيدات المعروفات لكليهما .

* * *

- ١٤ -

وكان كتوزوف قد تلقى فى أول شهر نوفبر من أحد جواسيسه معلومات تفيد أن الجيش الذى يقوده فى وضع يكاد يكون ميئوساً منه . فقد أبلغه الجاسوس أن الفرنسيين ، بعد عبور جسر فيينا . كانوا يزحفون بأعداد كبيرة على خط مواصلات كتوزوف الذى يصله بالإمدادات القادمة من روسيا ، فإذا قرر كتوزوف البقاء فى كريمس ، فسوف يتولى جيش نابليون البالغ مائة وخمسين ألفاً قطع جميع مواصلاته ، ويحاصر جيشه المنهك الذى لا يتجاوز أربعين ألفاً، وبذلك يجدنفسه فى وضع الجنرال ماك قبل أولم . وإذا قرر كتوزوف ترك الطريق المؤدى إلى اتصاله بالإمدادات الروسية ، فعليه أن يسير فى أرض مجهولة له بلا طريق حتى جبال بوهيميا ، وفى أعقابه زبدة جيش العدو ، وعليه أن يتخلى عن كل أمل فى الاتصال ببوكسهندن Buxhevden . وإذا قرر كتوزوف الزحف على الطريق من كريمس إلى أولموتز Olmütz لينضم إلى القوات القادمة من روسيا خاطر بأن يسبقه الفرنسيون الذين عبروا جسر فيينا على هذا الطريق، وبذلك يضطر للدخول فى معركة وهو زاحف ، مكبلا بكل مخازنه مع علو عدده ثلاثة أضعافه يحف به من الجانبين . وقد اختار كتوزوف المسار الأخير .

وكان الفرنسيون — كما قال الجاسوس — بعد عبور النهر قد

زحفوا بسرعة نحو زنيم Znaim التى تقع على خط سير كتوزوف ، أمامه بأكثر من مائة فرسخ . وكان أمله الأكبر فى الوصول إلى زنيم قبل الفرنسيين لينقذ جيشه . أما السماح للفرنسيين أن يصلوا قبله إلى زنيم فمعناه تعريض كل الجيش لمثل العار الذى جلل النمسويين فى أولم Ulm ، أو للدمار التام . ولكن وصوله إلى هناك بكل الجيش كان مستحيلا ، لأن طريق الفرنسيين من فيينا إلى زنيم أقصر وأفضل من طريق الروس من كريمس إلى زنيم .

وليلة تلقى كتوزوف هذه الأنباء أرسل طليعة برجاتيون وعدتها أربعة آلاف جندى إلى اليمين فوق الجبال من طريق كريمس/زنيم إلى طريق فيينا/زنيم . وكان على برجاتيون أن يزحف بسرعة فائقة كى يقف ووجهه إلى فيينا وظهره إلى زنيم ، وإذا نجح فى الوصول إلى الطريق قبل الفرنسيين فعليه أن يعطلهم أطول مدة يستطيعها . أما كتوزوف نفسه فكان متوجهاً بكل معداته إلى زنيم مباشرة .

وسار برجاتيون ٤٥ فرسخاً فى الليل العاصف وسط الجبال ، وبلا طريق ، وجنوده حفاة جياع ، تاركاً ثلث قواته متخلفين وراءه ببطء ، فوصل برجاتيون إلى هولا برون Hollabrunn عن طريق فيينا/زنيم قبل بضع ساعات من الفرنسيين الزاحفين من فيينا إلى هولابرون . وكان كتوزوف بحاجة إلى ٢٤ ساعة كاملة ليصل إلى زنيم بكل المعدات . وهكذا كان على برجاتيون كى ينقذ كل الجيش أن يوقف بجنوده الجياع الحفاة المنهكين الأربعة آلاف

كل الجيش الفرنسى الذى يواجهه فى هولابرون لمدة ٢٤ ساعة ، وكان هذا مستحيلا بداهة . ولكن القدر شاء أن يجعل هذا المستحيل ممكناً ، ذلك أن نجاح الحيلة التى أوقعت جسر فيينا فى أيدى الفرنسيين شجع « ميرا » Murat أن يحاول خداع كتوزوف أيضاً ، فعندما التقى ميرا بفيلق برجاتيون الضعيف على طريق زنيم ظنه كل جيش كتوزف ، ولكى ينزل بهذا الجيش هزيمة نهائية ساحقة انتظر لحين وصول القوات التى لم تزل على الطريق من فيينا ، وفى سبيل ذلك اقترح على الروس هدنة لمدة ثلاثة أيام ، بحيث لا يغير أحد الجيشين موضعه أو يتحرك من مكانه ذاك . وزعم ميرا أن هناك مفاوضات جارية الآن للسلام ، وأنه يقترح هذه الهدنة لتجنب إراقة الدماء بغير موجب . وصدق الجنرال النمسوى نوستتس Nostits الذى كان يحتل المواقع الأمامية ما قاله رسل ميرا ، وانسحب تاركاً فيلق برجاتيون بغير حماية . وركب الرسل الآخرون إلى الخط الروسى لإبلاغ نفس الأنباء عن المفاوضات الجارية . وقال برجاتيون : إنه ليس من صلاحياته قبول أو رفض أى هدنة، وأرسل ياوره بتقرير إلى كتوزوف بالاقتراح الذى عرض عليه .

وأتاحت الهدنة الفرصة الوحيدة لكتوزوف كى يكسب الوقت ، ويترك قوات برجاتيون تستريح ، وأن تتقدم معداته الثقيلة ومخازنه (التى كانت تحركاتها خافية على الفرنسيين) مرحلة أخرى من الطريق . وهكذا كان عرض ميرا لهذه الهدنة هو الفرصة الوحيدة

وغير المتوقعة لإنقاذ الجيش . وبمجرد سماع كتوزوف بهذه الأنباء أسرع بإيفاد الجنرال أركان الحرب فنزنجيرود Winzengerode الذى كان معه إلى معسكر العدو ، ومعه تعليمات لا بقبول الهدنة فقط ، بل وعرض شروط للتسليم ، وفى الوقت نفسه أرسل كتوزوف ياورانه إلى المؤخرة ليستعجلوا إلى أقصى حد نقل معدات الجيش كله على طريق كريمس وزنيم . وكان على فيلق برجاتيون الجائع المنهك وحده أن يغطى تحركات المعدات ، وتحركات الجيش كله بأن يظل ثابتاً فى وجه عدو عدده ثمانية أضعاف قواته .

وكانت توقعات كتوزوف صحيحة من حيث مقترحات التسليم التى لم تفيده بشىء ، بل أفسحت وقتاً لوصول جزء من معداته إلى زنيم ، كما أدت إلى كشف خطأ ميرا الفاحش بأقصى سرعة . فما إن وصلت إلى علم بونابرت — الذى كان فى شنبرون Schönbrunn على مسافة ٢٥ فرسخاً فقط من هولابرون رسالة ميرا ومقترحات الهدنة والتسليم حتى فطن إلى الخدعة وأرسل الخطاب التالى إلى ميرا :

إلى الأمير ميرا

تحريراً بشنبرون فى ٢٥ برومير سنة ١٨٠٥ الساعة ٨ صباحاً ..

« من المستحيل أن أجد ألفاظاً تكفى للتعبير لك عن استيائى . فأنت لا تقود إلا طليعتى وليس لك الحق فى عقد أى هدنة بدون أمرى . وأنت بهذا تعرضنى لخسارة ثمرات الحملة . اقطع الهدنة فوراً وازحف على العدو . ويجب أن تعلنهم أن الجنرال الذى وقع

هذا التسليم لم يكن من حقه هذا ، وأن إمبراطور روسيا هو صاحب الحق فى هذا دون سواه .

« ومتى صدق إمبراطور روسيا على الاتفاق سالف الذكر فسوف أصدق عليه أنا ، ولكن الأمر كله خدعة . ازحف على الجيش الروسى وحطمه ، فأنت فى وضع يمكنك من الاستيلاء على كل معداته ومدفعيته .

« إن أركان حرب إمبراطور روسيا ... والضباط ليسوا شيئاً عندما يكونون بلا سلطات . وهذا الجنرال لم تكن له أى سلطة . لقد انخدع النمسويون عند عبور جسر فيينا ، ولكنك تركت أحد أركان حرب أو ياوران الإمبراطور يغرر بك » .

نابليون

واندفع ياور نابليون بأقصى سرعة حاملا هذا التهديد إلى ميرا . ولم يركن بونابرت إلى قواده فتقدم بنفسه إلى ميدان المعركة بكل حرسه ، خشية أن تفلت الفريسة من بين أصابعه . وفى هذه الأثناء كان رجال برجاتيون الأربعة آلاف يوقدون نيران المعسكر فى مرح ويتجففون ويستدفئون ويطهون عصيدتهم لأول مرة منذ ثلاثة أيام . ولم يكن أحد منهم يعلم أو يحلم بما خبئ لهم .

* * *

- ١٥ -

قبل الساعة الرابعة من بعد الظهر ، كان الأمير أندريه الذى واصل إلحاحه على كتوزوف قد وصل إلى جرونت Grunte . وانضم إلى برجاتيون ولم يكن ياور بونابرت قد وصل بعد إلى ميرا . ولم تكن المعركة قد نشبت بعد . ولم يكونوا فى فيلق برجاتيون يعرفون شيئاً عن مجرى الأحداث ، فكانوا يتحدثون عن السلام ، إلا أنهم لم يؤمنوا بأنه ممكن . وكانوا يتحدثون عن معركة ، ولكنهم كذلك لم يؤمنوا بأنها وشيكة النشوب .

ولما كان برجاتيون يعلم أن بلكونسكى ياور مقرب موثوق به ، فقد استقبله بدماثة القائد المهذب المتنازل . وقال له : إنه ربما نشب اشتباك فى هذا النهار أو فى النهار التالى ، وترك له حرية البقاء ملازماً له أثناء المعركة ، أو التراجع إلى المؤخرة ليراقب حركة التراجع ، وهذه أيضاً مسألة لها أهميتها . ثم قال برجاتيون كأنما يطمئن أندريه :

- والغالب أنه سوف لا تكون اليوم عمليات .

وقال برجاتيون فى نفسه :

- إن كان هذا الشاب من فتيان الياوران العاديين ، أرسلوه إلى هنا ليفوز بوسام ، ففى وسعه أن يحصل عليه وهو فى المؤخرة ، أما إن كان ضابطاً شجاعاً فلا بأس من بقائه بجانبى ، وسيكون ذا نفع لى .

وقبل أن يرد الأمير أندريه عليه سأله أن يسمح له بالركوب حول الموقع للتعرف على مواضع وأحوال القوات ، لكى يتسنى له إذا ما كلف بتبليغ رسالة أن يعرف إلى أين يأخذها . واستدعى الأمير بجراتيون ضابطاً منوباً وسيماً أنيقاً ، فى أصبعه خاتم من الألماس ، ويتكلم الفرنسية بركاكة ولكن بثقة تامة ، كى يصحب الأمير أندريه .

وعلى الجانبين شاهدا ضباطاً مبتلين بالمطر ، بوجوه مكتئبة ، باد عليهم أنهم يتطلعون إلى شىء ما . ورأوا الجنود يحملون من القرية أبواباً ومقاعد وأسيجة . وقال ضابط أركان الحرب لأندريه وهو يشير نحوهم :

- لا يمكننا كفهم عن هذه الأعمال ، فقد ترك قواد السرايا الزمام يفلت منهم ، وانظر إلى هناك! (وأشار إلى كشك كانتين) وأردف : إنهم يتجمعون هنا ، وهنا يجلسون . وقد طردتهم جميعاً هذا الصباح ، ولكن ها هم تجمعوا مرة أخرى . ولابد لى أن أذهب وأروعهم يا أمير . بإذنك لحظة واحدة .

فقال له أندريه الذى لم يكن قد اتسع له الوقت ليأكل :

- فلنذهب معاً . كى أحصل من هناك على شىء من الخبز والجبن .

- لماذا لم تقل لى هذا من قبل يا أمير ؟ كنت إذن أقدم لك شيئاً .

وترجلا وذهبا إلى كشك الكانتين ، وكان عدد من الضباط جالسين إلى المناضد بوجوه محمرة منهكة ، يأكلون ويشربون. وقال ضابط أركان الحرب بلهجة التأنيب التى سبق تكرارها عدة مرات :

– ما معنى هذا أيها السادة ؟ ينبغى ألا تغيبوا عن مواقعكم هكذا . فالأمير أصدر أمره بألا يفارق أحد موقعه .

ووبخ بالذات ضابط مدفعية ملطخاً بالوحل كان جالساً بجوربه لأنه كان قد أعطى حذاءه لصاحب الكانتين كى يجففه له ، وكان قد وقف عند دخولهما وهو يبتسم فى تكلف :

– ما هذا يا نقيب ؟ ألست خجلاناً من نفسك يا نقيب توشين Tushin ؟ كنت أعتقد ، بما أنك ضابط مدفعية ، إنك ستكون قدوة حسنة ، فإذا بك بغير حذاء ! وفى أى لحظة يدوى النفير ، وعندئذ ستكون فى موقف بديع وأنت بدون حذاء . هيا جميعاً أيها السادة إلى مواقعكم !

ولم يستطع الأمير أندريه مغالبة الابتسام وهو ينظر إلى النقيب توشين الذى راح يبتسم ويتململ فى وقفته فوق هذه القدم الحافية تارة ، وفوق القدم الحافية الأخرى طوراً ، وينظر فى تساؤل بعينيه الواسعتين اللتين تشفان عن الطيبة والمكر معاً وهو ينقل بصره بين الأمير أندريه وضابط أركان الحرب ، ثم قال باسماً بحياء ليحول الموقف إلى نكتة :

– الجنود يقولون : إن الحركة أسهل بقدمين حافيتين .

ولكنه سرعان ما أدرك أن الموقف سخيف ، فزاد ارتباكه .

وقال ضابط أركان الحرب وهو يحاول المحافظة على جده ووقاره :

– تفضلوا جميعاً بالذهاب إلى مواقعكم !

ورمق الأمير أندريه مرة أخرى قامة ضابط المدفعية القصيرة ، وتبين فيه جانباً هزلياً بعيداً عن العسكرية . ولكنه جانب جذاب جداً.

وذهب الأمير أندريه ومرافقه إلى جواديهما فركباهما ، واجتازا القرية ، وراحا يقابلان باستمرار جنوداً وضباطاً من مختلف الرتب، ورأيا على اليسار خنادق مشقوقة عن أغوار من التربة الحمراء . وكانت هناك عدة كتائب من الجند فى قمصانهم – برغم البرد والرياح– وهم يكدحون كالنمل الأبيض فى هذه الخنادق ، فعلى امتدادها كانا يريان باستمرار المعاول وهى ترتفع ، والجواريف وهى تلقى من باطن الخندق الطين الأحمر ، من غير أن يشاهدا الأيدى التى تحملها. وركبا إلى الخنادق وفحصاها ، ثم واصلا الركوب . وخلف الخنادق مباشرة التقيا بعشرات من الجنود يجرون جرياً متواصلا بين هذه الاستحكامات ، واضطر الفارسان إلى تغطية أنوفهما والركض بسرعة للفرار من رائحة هذه المراحيض المرتجلة . وقال ضابط الأركان :

– وهذه هى وسائل الرفاهية فى المعسكرات أيها الأمير .

وركبا إلى التل المقابل ، ومنه ألقيا نظرة على الفرنسيين. وتوقف الأمير أندريه وأمعن النظر فيما أمامه . وقال ضابط الأركان مشيراً إلى أعلى نقطة فى التل :

— ما تراه هنا هو موقع البطارية التى يقودها الشخص الغريب الأطوار الذى رأيناه جالساً بلا حذاء . ومن هناك يمكنك أن ترى كل شىء . فلنذهب إلى هناك يا أمير .

فقال الأمير لكى يتخلص من ضابط الأركان :

— أشكرك كثيراً . سأذهب الآن وحدى . أرجو ك لا تتعب نفسك أكثر من هذا .

فتركه الضابط ، وركب الأمير أندريه إلى هناك وحده . ووجد الوحدات كلما اقترب من مكان العدو أشد مرحاً وأكثر تنظيماً . فالفوضى والكآبة كانت تسود قوات النقل قبل زنيم . وهى القوات التى مر بها الأمير أندريه هذا الصباح ، على بعد عشرة فراسخ من الفرنسيين . وفى جرونت أيضاً لاحظ شيئاً من الفزع ، ولكن كلما اقترب من الخطوط الفرنسية كان مظهر الوحدات أفضل وأدل على الثقة بالنفس . وكان الجنود فى معاطفهم الثقيلة مصطفين مع رقبائهم ، والنقيب ينادى الأسماء . وهناك جنود متناثرون على امتداد السهل ، رآهم يحملون كتل الخشب والحطب ويشيدون أكواخاً ، وهم يثرثرون ويضحكون بمرح . وبعضهم الآخر جالسون حول النيران ، فى كامل ثيابهم ، ليجففوها أو يتحلقون قصاع العصيدة وقزاناتها ، وهم ينظفون أحذيتهم ومعاطفهم . وفى إحدى السرايا كان العشاء قد أعد ، والجنود يرقبون الأوعية التى يتصاعد منها الدخان ، وينتظرون أن تحمل منها عينة إلى القوميسير فى وعاء



وذهب الأمير أندريه ومرافقه إلى جواديهما فركباهما ، واجتازا القرية ، وراحا يقابلان باستمرار جنودًا وضباطًا من مختلف الرتب ..

خشبي ، وكان جالساً فوق قطعة من الخشب أمام كوخه .

وفى سرية أخرى – وهى مجدودة فليست كل السرايا لديها فودكا – وقف الجنود جماعة حول رقيب عريض المنكبين فى وجهه آثار الجدرى ، يحمل إبريق الفودكا ويصب منه فى الكيزان التى يقدمونها له كل منهم بدوره والجنود يرفعون الكيزان إلى أفواههم بكل إجلال ، ويشربونها عن آخرها ، ثم يلعقون شفاههم ويحكونها بأكمام معاطفهم ، ثم ينصرفون سعداء . وكانت كل الوجوه مطمئنة كأنما هم ليسوا على مرأى من العدو ، قبل العمليات مباشرة ، التى ستسفر عن مصرع نصفهم على الأقل ، بل كأنهم فى مكان ما من روسيا ، حيث مسقط رأسهم ، وركب الأمير أندريه إلى فصيلة القناصة ، وهو فى طريقه إلى صفوف قاذفى القنابل اليدوية . ووجدهم جميعاً رجالا أشداء منهمكين فى نفس هذه المشاغل السلمية ، غير بعيد من كوخ العقيد ، ثم أقبل إلى شرذمة من قاذفى القنابل اليدوية رقد أمامهم رجل عريان تماماً ، وقد أمسك به رجلان ، وكان اثنان آخران يجلدانه بفروع أشجار لدنة فى إيقاع منتظم فوق ظهره . والرجل يصرخ بصورة غير طبيعية . وكان رائد بدين يتمشى جيئة وذهاباً أمام هذه الشرذمة ، ويقول غير مبال بالصراخ :

– من العار لأى جندى أن يسرق . يجب أن يكون الجندى أميناً شريفاً شجاعاً ، فإن سرق زميلا له فهو مجرد من الشرف . حيوان بهيم ! استمروا فى الجلد !

وتوالت الضربات المكتومة ، والصراخ اليائس المفتعل . والرائد يصيح :

– استمروا ! استمروا !

واقترب من الياور ضابط شاب يبدو على وجهه الارتباك والأسى ، مبتعداً عن الجلد ، ونظر إلى الأمير بتساؤل . وابتعد الأمير حتى وصل إلى الخط الأول ، ومر من أمامه . وكان خطنا بعيداً عن خط الأعداء عند الجناح الأيمن والجناح الأيسر . أما فى الوسط ، فى الموضع الذى تقابل فيه الرسل فى الصباح ، فكان الخطان متقاربين جداً ، بحيث كان جنود الجيشين يرى كل منهما وجه الآخر . بل ويتجاذبون الحديث . وكان بعض الجنود من الفريقين قد تجمعوا فى بعض المواضع من الجانبين ويضحكون وهم يتأملون أزياء أعدائهم الغريبة .

ومنذ الصباح الباكر ، برغم الأوامر الصريحة التى تحرم التجمع عند الخط الأمامى ، لم يستطع قادة الوحدات كبح فضول الجنود . أما الجنود فى المواقع الأمامية فكانوا أشبه بمرشدى السياحة الذين يدلون الزوار على عجائب ما تحت يدهم . ولكنهم لم يلبثوا أن ملوا هذه المهمة وراحوا ينتظرون بديلهم بفارغ الصبر . ووقف الأمير أندريه لينظر إلى الفرنسيين بإمعان .

ورأى الجنود ينظرون مبهورين إلى أحدهم وقد وقف عند الخط الأمامى وراح يتحدث بسرعة متدفقة مع الجنود الفرنسيين ، وكان

ذلك الجندى دولوهوف Dolohov ، ومن الواضح أنه يجيد الفرنسية . وعرفه الأمير أندريه على الفور وأصغى لما كان يقوله . وكان مع دولوهوف نقيبه ، وقد جاءا من الجناح الأيسر حيث موقع آلايه . وراح النقيب يسأل دولوهوف عما يقول الجندى الفرنسى ، لأن النقيب لم يكن يعرف الفرنسية ، ولكنه لم يجبه لأنه كان مشتبكاً فى مناقشة حامية مع الجندى الفرنسى . وكان حديثهما — كما هو متوقع — حول الحملة . والجندى الفرنسى يخلط بين النمسويين والروس ، ويزعم أن الروس هزموا هزيمة ساحقة فى أولم ، ودولوهوف يؤكد له أن الروس لم يهزموا قط ، بل إنهم هزموا الفرنسيين . وراح يقول :

— لدينا أوامر بطردكم من هنا ، وسننفذها بحذافيرها !

فقال الجندى الفرنسى :

— خير لكم أن تحذروا لئلا نأسركم جميعاً ومعكم قوزاقكم !

وضحك المتفرجون فى الجانب الفرنسى ، فقال دولوهوف :

— سنجعلكم ترقصون كما رقصتم فى يوم سوفوروف Suvorov.

فقال أحد الفرنسيين :

— بأى شىء يفاخر هذا الروسى ؟

فأدرك أحد رفاقه أن الإشارة تنصرف إلى حروب سابقة وقال :

— شىء من التاريخ القديم . إمبراطورنا سيهزم سفورروف كالآخرين !

— بونابرت ...

فقاطعه الفرنسى بغضب :

— لا تقل بونابرت ! إنه الإمبراطور ! عليك اللعنة !

— لعنة الله على إمبراطوركم !

ثم راح دولوهوف يسبه بالروسية سباباً غليظاً ، وحمل بندقيته على كتفه وانصرف . وقال لنقيبه :

— هيا بنا يا إيفان لوكتش Ivan Lukitch

وقال أحد الجنود الروس لرفاقه :

— أهكذا إذن يتكلمون الفرنسية . أنا أيضاً أتكلمها !

وراح يقلد أصوات الفرنسيين بمقاطع منفصلة وهو يتأود ، فقهقه رفاقه قهقهة من صميم قلوبهم ، ولم يتمالك الفرنسيون أنفسهم من الاشتراك فى الضحك والمرح ، بحيث يخيل لمن يسمعهم أنه لم يعد أمام الفريقين إلا تفريغ بنادقهم ، ونسف ذخيرتهم ، والإسراع بالعودة إلى بيوتهم . ولكن البنادق ظلت معبأة ، وفتحات الرمى فى البيوت والاستحكامات ظلت متربصة بالويل ، والمدافع ظلت مصفوفة متقابلة مستعدة للانطلاق .

* * *

-١٦-

وبعد أن قام بجولة حول خط الجيش بأسره ، من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر ، ركب الأمير أندريه إلى تلك البطارية التى كان ضابط الأركان قد قال له إن الميدان كله يمكن أن يشاهد منها . وهناك ترجل ووقف عند نهاية أحد المدافع الأربعة التى كانت قد أنزلت عن منصاتها، وكان أحد المدفعية واقفاً ديدباناً أمام المدافع قبالة الضابط ، ولكن بإشارة من يده استأنف الديدبان خطواته الرتيبة . ووراء المدافع كانت منصاتها ، ومن وراء المنصات حبال الحراسة ونيران جنود المدفعية . وإلى اليسار ، غير بعيد من المدفع الأخير كوخ حديث البناء ، انبعثت منه أصوات الضباط فى حديث محتدم . وكان موقع البطارية يكشف فعلا منظر كل مواقع الوحدات الروسية والجانب الأكبر من مواقع العدو . وفى مواجهة البطارية مباشرة ، عند خط الأفق فوق التل المقابل يمكن مشاهدة قرية شنجرابن Schöngraben ، وإلى اليمين واليسار يمكن تبين ثلاثة أماكن للقوات من بين دخان نيران معسكرات الجنود الفرنسيين ، ومعظمها بلا شك فى القرية نفسها ووراء التل . وإلى يسار القرية لمح شيئاً يشبه البطارية ، ولكن لا يمكن تبينه بالعين المجردة . وكان جناحنا الأيمن فوق مرتفع شديد الانحدار ، يتحكم فى الموقع الفرنسى المقابل . وفوق هذا المرتفع كانت آلايات المشاة . وعلى

الحافة بالضبط يرابط السوارى . وفى الوسط – بطارية توشين – ومن هناك كان الأمير أندريه يتفقد المواقع ، كان أشد انحدار نحو الجدول الذى يفصلنا عن شونجرابن . ومن الجانب الأيسر كانت قواتنا ملاصقة لأيكة يتصاعد منها دخان نيران مشاتنا ، التى يلقون فيها بالحطب والأخشاب. أما الخط الفرنسى فكان أعرض من خطنا، وكان واضحاً أنه يسهل على الفرنسيين تطويقنا من الجانبين . وخلف موقعنا واد ضيق عميق شديد الانحدار ، من العسير الارتداد إليه بالمدفعية والخيالة . واتكأ الأمير أندريه بكوعه على المدفع ، وأخرج من جيبه دفتر مذكرات ورسم خطة لتوزيع القوات . وفى موضعين دون ملاحظات بالقلم الرصاص وفى نيته مناقشتها مع برجاتيون . وكان فى نيته أن يقترح أولا تركيز كل المدفعية فى الوسط ، وسحب الخيالة ثانياً إلى الجانب الأقصى من الوادى . فقد تعود الأمير أندريه دائماً أن يلازم القائد العام ويلاحظ تحركات مجموعات الرجال ومناوراتهم ، كما كان يدرس باستمرار البيانات التاريخية عن المعارك . ولذا لم يتمالك نفسه من تخيل العمليات العسكرية القادمة بصورتها العامة . وطال تفكيره فى الاحتمالات العريضة، على النحو التالى :

– لو ركز العدو هجومه على الجناح الأيمن ، سيكون على القناصة وقاذفى القنابل اليدوية أن يدافعوا عن مواقعهم ، إلى أن تأتيهم القوات الاحتياطية من الوسط . وفى هذه الحالة يستطيع الخيالة

أن يهاجموهم ويردوهم على أعقابهم . وفى حالة الهجوم على الوسط ، فلدينا فى هذا الموضع المرتفع البطارية الوسطى ، وتحت ستار نيرانها نسحب الجناح الأيسر وننسحب إلى الوادى ...

وكان طيلة هذا الوقت متكئاً إلى المدفع ، وترامى إلى سمعه صوت حديث الضباط فى الكوخ ، ولكنه لم يلق باله إلى كلمة واحدة مما كانوا يقولون . وفجأة استرعى انتباهه من بين هذه الأصوات صوت جاد فلم يسعه إلا أن ينصت . وقال هذا الصوت اللطيف الذى بدا للأمير أندريه مألوفاً بعض الشىء :

ـ لا يا عزيزى ، فأنا أرى أنه لو عرف المرء ما يحدث بعد الموت ، لما خاف أحد منا الموت !

وقاطعه صوت آخر شاب قائلا :

ـ ولكن سواء أخاف أم لم يخف ، فلا مفر من الموت !

وقال صوت ثالث مقاطعا الاثنين معاً :

ـ أنتم خائفون دائماً ! هذا عيب عليكم أيها المتعلمون ! وأنتم طبعاً يا رجال المدفعية محظوظون لأنكم تستطيعون دائماً أن تحملوا معكم كل ما تحتاجون إليه من طعام وشراب !

وضحك هذا المتكلم ، الذى يبدو أنه ضابط مشاة . وقال المتحدث الأول ، الذى خيل للأمير أندريه أنه يعرفه :

ـ ومع هذا يشعر المرء بالخوف من المجهول . هذه هى القضية !

وجميل جداً أن نقول إن الروح تصعد إلى السماء ، ولكننا نعلم أنه لا سماء هناك ، وإنما هو الجو !

وقاطعه صوت ضابط المشاة الذى يدل على رجولة :

ـ هيا أعطنا قطرة من براندى الأعشاب الذى لديك يا توشين !

فقال الأمير أندريه لنفسه ، وقد عرف صاحب الصوت المتفلسف :

ـ أوه ! إنه النقيب الذى كان بلا حذاء فى الكانتين !

وقال توشين :

ـ البراندى قبل كل شىء !... ولكن تصور حياة مستقبلة ...

ولم يتم عبارته . ففى تلك اللحظة سمع أزيز فى الهواء ، أخذ يقترب ويقترب ، بمزيد من السرعة والوضوح ، ثم انغرست قنبلة المدفع فى الطين غير بعيد من الكوخ ، فمزقت الأرض بقوة خارقة للطبيعة . وكأنما أنت الأرض متوجعة من اللطمة . وفى نفس اللحظة اندفع من الكوخ فى مقدمة الجميع توشين القصير ، وفى فمه غليونه القصير ، وقد اكفهر وجهه ، ومن ورائه برز صاحب الصوت الرجولى . وهو ضابط مشاة متين البنية ، راح يعدو نحو سريته ، وهو يزرر معطفه أثناء الجرى ...

* * *

- ١٧ -

وامتطى الأمير أندريه جواده ، ولكنه تلكأ عند البطارية ، لينظر إلى دخان المدفع الذى انطلقت منه القذيفة . وكل ما أمكنه أن يراه سرعة تحرك مجموعات الفرنسيين هنا وهناك وأن البطارية التى أطلقت القذيفة كانت على اليسار ، والدخان مايزال معقوداً فوقها ، ورأى فرنسيين على جواديهما فوق التل يركضان ، ولا شك أنهما من الياوران . كما رأى طابوراً صغيراً للأعداء بكل وضوح يهبط التل ، ربما لتعزيز الخط . ولم يكن دخان القذيفة الأولى قد تبدد ، عندما تصاعد دخان آخر من قذيفة أخرى . ها قد بدأت المعركة . ودار الأمير أندريه بجواده وأسرع عائداً إلى جرونت ليبحث عن الأمير بجراتيون . وسمع من ورائه قذائف المدفعية تشتد أصواتها ويغزر انهمارها . ولا شك أن رجالنا شرعوا يردون على النار بالمثل . وسمعت أصوات بنادق من أسفل عند النقطة التى كان الخطان فيها أشد ما يكونان تقارباً وكان لمياروا Lemarroi قد وصل لتوه إلى ميرا برسالة نابليون المتوعدة ، فتحمس ميرا وبادر لمحو غلطته الفظيعة وحرك قواته إلى الوسط وصوب الجناحين معاً ، على أمل أن يتمكن قبل حلول المساء ووصول الإمبراطور من إبادة القوة الهزيلة التى تواجهه .

وقال الأمير أندريه فى نفسه ، والدم يتدفق إلى قلبه :

- ها قد بدأت المعركة . ولكن أين وكيف ستكون موقعة « طولون » Toulon الخاصة بى (وكان بهذا يشير إلى أن طولون كانت أول معركة برز فيها الضابط بونابرت الشاب) .

ومر من بين الجماعات التى كانت تأكل العصيدة وتشرب الفودكا منذ ربع ساعة ، فلم ير هناك شيئاً سوى حركة الجنود السريعة وهم يشكلون الصفوف ويتناولون بنادقهم ، وتبين على كل وجه نفس اللهفة التى لمسها فى قلبه . فكل واحد من الضباط والجنود كان وجهه كأنه يقول بأفصح لسان :

- لقد بدأ القتال ! ما أفظع هذا وما أبهجه !

وقبل أن يصل إلى الخنادق التى كان يجرى حفرها رأى فى ضوء المساء من ذلك اليوم من أيام الخريف رجالا على ظهور الخيل يقبلون نحوه . وفى مقدمتهم فارس على حصان أبيض عليه عباءة وقلنسوة من الاستراخان الفاخر . إنه الأمير بجراتيون . ووقف الأمير أندريه فى مكانه وانتظره ، وعرفه الجنرال الأمير برجاتيون فهز له رأسه ، وكان ينظر أمامه بإمعان بينما أندريه يروى له بإيجاز ما شاهده .

وكانت أمارات الحماسة ظاهرة أيضاً على وجه برجاتيون القوى الأسمر بعينيه نصف المغمضتين الناعستين ، ونظر الأمير أندريه بدهشة قلقة إلى هذا الوجه الجامد الأسارير ، وتساءل فى نفسه : أهذا الرجل يفكر ويشعر ؟ فيم إذن تفكيره الآن ؟ وهل وراء هذا الوجه

الجامد أى إحساس جياش ؟.. وهز الأمير برجاتيون رأسه مؤمناً على كلمات أندريه وقال :

— حسن جداً ..

قالها بلهجة رجل كان يعرف سلفاً ما سمعه ، وما حدث . وكان الأمير أندريه يلهث من سرعة ركضه بجواده ، لذا كان يتكلم بسرعة ، أما الأمير بجراتيون فكان يتكلم بأناة متعمدة ، كأنه يوحى إليه أنه لا موجب للعجلة . ولكنه مع هذا هز جواده فركض به فى اتجاه بطارية توشين . وتبعه الأمير أندريه مع الحاشية . وكان الموكب مكوناً من ياور بجراتيون الخاص زهيركوف Zherkov ، وضابط تابع ، وضابط الأركان المنوب على جواد إنجليزى جميل الشكل ، وموظف مدنى هو مراجع الحسابات الذى طلب بدافع الفضول أن يرى المعركة . وهذا المراجع رجل بدين ، سمين الوجه ، كان ينظر فيما حوله بابتسامة استمتاع ، وهو يهتز على حصانه ، وشكله يبدو غريباً فى عباءته على السرج بين الفرسان والقوزاق والياوران . وقال زهيركوف للأمير أندريه مشيراً إلى المراجع :

— هذا السيد يريد أن يرى معركة ولكنه بدأ يشعر بالخوف .

ورد عليه المراجع طافح الوجه بالابتسام وقد سره أن يرى نفسه هدفاً للهزل :

— إليك عنى !

وقال ضابط الأركان المنوب :

— هذا غريب جداً يا عزيزى الأمير !

وفى هذه اللحظة كانوا جميعاً فى طريقهم صاعدين إلى بطارية توشين ، وإذا بقذيفة ترج الأرض أمامهم تماماً . فسأل المراجع باسماً فى سذاجة :

— ما هذا الذى سقط أمامنا ؟

فقال زهيركوف :

— كعكة فرنسية !

فقال المراجع :

— هذا ما يضربوننا به إذن ؟ ما أفظع هذا !

وبدا عليه الاستمتاع البالغ . ولم يكد يتم عبارته حتى ارتفع أزيز آخر مفاجئ رهيب ، وارتطمت القذيفة هذه المرة بشىء رخو : سقطت على قوزاق يركب خلف المراجع بقليل إلى اليمين ، فسقط عن صهوة جواده . ومال زهيركوف وضابط الأركان فوق سرجيهما ، وابتعدا بالجوادين إلى الناحية الأخرى . وتوقف المراجع وراح يحدق فى القوزاق بفضول . وكان القوزاق قد مات على الفور ، أما الحصان فكان ما يزال يصارع الموت .

أرخى الأمير برجاتيون جفنيه وأدار رأسه ، ولما رأى سبب التأخير ، أشاح بوجهه فى غير اكتراث ، وكأنه يتساءل :

— لماذا نلاحظ مثل هذه التفاهات التفصيلية ؟

وبمقدرة الفارس المتمرس أوقف جواده ، وانحنى قليلا



وتقدم رجل عريض المنكبين عملاق بيده خرقة ، هو المدفعجى رقم واحد فوقف بجوار العجلة منفرج الساق .

واستخلص سيفه الذى كان قد تشابك مع عباءته ، وهو سيف من الطراز القديم . وتذكر أندريه القصة التى تقول إن سوفورف كان قد أعطى سيفه لبجراتيون فى إيطاليا ، وطابت له هذه الذكرى فى تلك اللحظة . وكانوا قد وصلوا إلى نفس البطارية التى كان أندريه قد فحص من جوارها ميدان المعركة . وسأل الأمير بجراتيون المدفعى الواقف بجوار صناديق الذخيرة :

— سرية من هذه ؟

وكان ما يعنيه بسؤاله فى الحقيقة هو :

— أأنتم مذعورون ها هنا ؟

وفهم المدفعى مراده وهو رجل أحمر الشعر فى وجهه نمش وقال بصوت واضح فيه المرح :

— إنه النقيب توشين يا صاحب السعادة .

فقال بجراتيون :

— طبعاً طبعاً !

وكان يفكر فى شىء آخر ، وركب مبتعداً حتى آخر مدفع ، وعندما وصل إليه انطلقت منه قذيفة أصمت أذنيه وآذان حاشيته . ووسط الدخان الذى خيم على المدفع شوهد المدفعيون وهم يسحبون المدفع إلى مكانه الأول . وتقدم رجل عريض المنكبين عملاق بيده خرقة ، هو المدفعى رقم واحد فوقف بجوار العجلة منفرج الساقين ، بينما تقدم المدفعى رقم اثنين ودس القذيفة فى فوهة المدفع بيدين

مرتعشتين . وتقدم إلى الأمام رجل قصير متهدل الكتفين هو النقيب توشين ، ولم ير الجنرال ، وظلل عينيه بيده الصغيرة ، ثم صاح بصوت أجش :

— نقطتين إلى أعلى ويتم إحكام التصويب ! نقطتين ! أطلق النار يا مدفييديف Medvyedev !

ونادى بجراتيون الضابط ، وتقدم منه توشين رافعاً ثلاث أصابع إلى قلنسوته فى حياء وارتباك ، بحركة أشبه بحركة قس يبارك أحد الناس ، لا بحركة جندى يؤدى التحية . ومع أن مدافع توشين كان المفروض أن تقصف الوادى ، إلا أنه كان يضرب بقذائفه قرية شونجرابن التى كانت جموع كبيرة من الفرنسيين تتحرك خارجة منها.

ولم يكن أحد قد أصدر تعليمات إلى توشين عن توجيه قذائفه ، فقرر بعد استشارة رقيبه زهارشنكو Zaharchenko الذى كان يحترمه كثيراً أن الأفضل إشعال النار فى القرية . وقال بجراتيون : إن هذا حسن جداً ، بعد ما ذكر له الضابط أنه فعل هذا ، ثم شرع يفحص ميدان المعركة بأسره الذى كان مكشوفاً له ، وبدا عليه أنه يتمعن فى شىء مّا . وكان الفرنسيون قد تقدموا إلى أقرب مكان من الجهة اليمنى ، وفى الوهدة التى يتدفق فيها مجرى الماء ، تحت المرتفع الذى كان يحتله آلاى كييف أمكن سماع دوى متلاحق لطلقات بنادق شديد الجلبة . وأبعد من هذا إلى اليمين ، ووراء الخيالة ، أشار ضابط من الحاشية لبجراتيون إلى طابور فرنسى يطوق جناحنا

الإيمن . أما من اليسار فكانت الأجمة تسد الأفق ، فأصدر بجراتيون أوامره لكتيبتين من الوسط أن تتحركا يميناً لتقوية الجناح الأيمن . وجازف ضابط الحاشية بأن قال للأمير إن تحريك هاتين الكتيبتين سيجعل المدفع بدون حماية ، فالتفت نحوه بجراتيون وحدق فيه صامتاً . وقال الأمير أندريه : إن ملاحظة ضابط الحاشية صائبة ، وإنه لا يمكن الرد عليها . ولكن فى هذه اللحظة ركض إليهم ياور يحمل رسالة من عقيد الآلاى الذى فى الوحدة أن رجاله فى حالة فوضى ويتراجعون نحو قاذف قنابل كييف . وهز الأمير بجراتيون رأسه علامة الموافقة ، واتجه ببطء إلى اليمين وأرسل ياوراً إلى الخيالة يأمرهم بمهاجمة الفرنسيين ، ولكن الياور عاد بعد نصف ساعة ليقول : إن عقيد الخيالة قد انسحب بالفعل وراء الوادى الضيق ، لأن نيراناً مدمرة صبت عليه وأنه يخسر رجاله بغير جدوى ، ولذا ركزهم فى الغابة . فلم يزد بجراتيون على أن قال :

— حسن جداً !

وفيما هو يغادر البطارية سمعت طلقات فى الغابة من اليسار أيضاً ، وكانت المسافة من جهة اليسار أكبر من أن يذهب إليها بنفسه ، ولذا أرسل زهيركوف ليخبر أقدم جنرال هناك — وهو الجنرال الذى كان كتوزوف قد فتش آلايه فى براوناو Braunau — أن ينسحب بأسرع ما يمكنه إلى الوادى الضيق ، لأن الجناح الأيمن قد لا يصمد طويلا للعدو . وهكذا نسى أمر توشين والكتيبة التى كانت

ستحمى بطاريته .. وكان الأمير أندريه يصغى بعناية إلى الأحاديث المتبادلة بين الأمير بجراتيون والضباط القادة ، وإلى الأوامر التى يصدرها إليهم ، ولاحظ - لدهشته - أنه لم يكن يصدر أوامر إطلاقاً ، بل يكتفى بمحاولة إظهار أن كل ما يحدث بالضرورة أو بالصدفة أو بإرادة الضابط منفردين ، كان متفقاً مع أغراضه . ولكنه لاحظ أيضاً أنه بفضل كياسة الأمير بجراتيون - ومع أن ما تم كله كان بالصدفة لا بأمر منه - كان وجوده ذا قيمة كبرى . والضباط الذين كانوا يتوجهون إلى بجراتيون فى حالة ذهول ، كانوا يستعيدون رباطة جأشهم ، ولاحظ أن الضباط والجنود على السواء كانوا يرحبون به ويحيونه بمرح ، ويستعيدون روحهم المعنوية فى حضوره ، ويتلهفون على إظهار شجاعتهم أمامه .

* * *

- ١٨ -

وبعد أن ركب الأمير إلى أعلى نقطة فى جناحنا الأيمن شرع يهبط إلى أسفل التل، حيث كان دوى الرصاص متصلا ولا يمكن تبين شىء من كثرة الدخان . وكلما اقتربوا من القاع قلت الرؤية ، وزاد اليقين بالقرب من ميدان المعركة الحقيقى . وأخذوا يصادفون جرحى ، فرأوا رجلين يسندان ثالثاً من الجانبين ويجرونه ، ورأسه مغطى بالدم ، وليست عليه قلنسوة ، وهو يسعل ويبصق . ويبدو أن الرصاصة دخلت فمه أو حلقه . وأقبل آخر نحوهم يسير وحده بشجاعة بدون بندقيته وهو يتوجع بصوت عال ويعصر يديه من شدة الألم والدم يتدفق فوق معطفه وكأنه يتدفق من قارورة . والرعب أشد ارتساماً على وجهه من الألم ، فقد جرح منذ لحظة . وعبروا الطريق وشرعوا يهبطون منحدراً عميقاً ، وعلى السفح رأوا عدة رجال على الأرض ، وقابلهم حشد من الجند ، من بينهم عدد ليسوا جرحى ، وهم يسرعون بصعود التل لاهثين ، وبرغم وجود الجنرال كانوا يتكلمون معاً بصوت عال ويلوحون بأذرعهم . وفى وسط الدخان الذى أمامهم استطاعوا أن يروا صفوفاً من المعاطف الرمادية ، ولما رأى الضابط القائد بجراتيون جرى خلف جماعة جنوده المتراجعين وناداهم ليعودوا . وركب بجراتيون إلى الصفوف ، التى تتناثر بينها إطلاق الرصاص بحيث غمر حديث الجند وصياح الضباط ، والجو كله معبق بالدخان ،

ووجوه الجنود مستثارة وملطخة بالبارود . والكل منهمكون فى إطلاق النار أو تعبئة البنادق بالبارود والرصاص . ولكن كان من المستحيل أن يرى المرء إلى من يصوبون بنادقهم لكثافة الدخان الذى لم تبدده الرياح . والأزيز والدوى فى كل مكان . واقترب الأمير أندريه من حشد من الجند وتساءل :

– لا يمكن أن يكون هذا خط النار ، لأنهم متجمعون بغير نظام . ولا يمكن أن يكون هجوماً ، لأنهم لا يتحركون . ولا يمكن أن يكون مربعاً ، لأنهم ليسوا على شكل مربع . فما هذا بالضبط ؟

وتقدم عقيد مسن لطيف المحيا والابتسام فرحب بالأمير بجراتيون كأنما يستقبل ضيفاً مكرماً فى بيته ، وقال له إن آلايه واجه هجوماً من الخيالة الفرنسيين ، ومع أن هذا الهجوم قد رد على أعقابه ، إلا أن الآلاى فقد أكثر من نصف رجاله . وكان قوله : إن الهجوم تم صده لظنه أن هذا هو التعبير العسكرى الصحيح عما حدث ، ولكنه شخصياً لم يكن يعرف ماذا جرى فى غضون نصف الساعة بين قواته ، ولم يكن فى وسعه القطع بأن الهجوم قد صد ، أو أن آلايه هزم فى هذا الهجوم . فكل ما يعرفه أن قنابل يدوية ورصاصاً انهالت على آلايه وراحت تقتل الرجال ، وأن بعضهم صاح « الخيالة » ! فبدأ رجالنا يطلقون النار ، وما زالوا يطلقونها ، وإن لم يصوبوها على الخيالة الذين اختفوا ، بل على المشاة الفرنسيين الذين ظهروا فى الوهدة وراحوا يطلقون نيرانهم على رجالنا . وهز الأمير بجراتيون رأسه ،

علامة على أن هذا بالضبط ما كان يريده ويتوقعه . والتفت إلى ياور وطلب منه أن يأتى من فوق التل بكتيبتين من آلاى القناصة . وأدهش الأمير أندريه فى هذه اللحظة التغير الفجائى الذى اعترى وجه الأمير بجراتيون ، فقد اكتسى بأمارات العزم التى تبدو على إنسان يجرى الشوط الأخير فى يوم حار قبل الوثوب إلى الماء . واختفت من محياه النظرة الناعسة وتصنع التفكير العميق ، بل كانت عيناه تنظران أمامه كعينى النسر فى تعال وازدراء وقسوة ، وإن اتسمت حركاته بنفس الأناة .

ورجا العقيد الأمير بجراتيون أن يرتد إلى الخلف ، لأن هذا الموضع خطير عليه ، وراح ينظر إلى الحاشية مستنجداً بهم ليؤيدوه ، ولكنهم أشاحوا عنه . فأخذ يلفت نظر « صاحب السعادة » إلى ، الرصاص الذى يئز وينهمر من حولهم . وكانت توسلاته أشبه بتوسلات نجار إلى سيد من العلية أمسك بيده قدوماً أو منشاراً . وكأنه يقول له :

– نحن معتادون على هذا . أما أنت فقد تدمى أصابعك أو تقرحها !

وكأنما هذا الرصاص لا يمكن أن يقتله هو ، أما الأمير فهذا شىء آخر !.. وانضم ضابط أركان الحرب إلى العقيد فى توسلاته ، ولكن بجراتيون لم يرد عليهما بكلمة واحدة ، بل أصدر أمره بوقف إطلاق النار ، وإعادة مكان التشكيل لإفساح للكتيبتين من القناصة القادمتين . وفيما كان يتكلم كانت سحابة الدخان التى تغطى الوهدة

قد ارتفعت كأنما رفعتها وبددتها يد خفية ، والواقع أن الرياح أخذت تهب من اليمين إلى اليسار ، فتكشف لنا التل المقابل الذى يتحرك الفرنسيون عبره . وثبتت العيون بصورة غريزية على ذلك الطابور الفرنسى الذى ينحدر نحوهم وهو يتماوج طبقاً لتضاريس الأرض . وتراءت قلانس الفراء على رأس الجنود ، وأمكن تمييز الضباط من الجنود ، وشوهد علم الطابور خفاقاً فوق ساريته . وقال أحد أفراد الحاشية :

— ما أبدع زحفهم المنظم !

وكانت الطليعة قد بدأت تصل إلى الوحدة ، فالاشتباك سيحدث إذن على أقرب جانب من السفح ... ونظمت بقايا آلاينا المقاتل صفوفها بسرعة منحازة إلى اليمين ، وتقدمت كتيبتا القناصة فى نظام تام .. ولم يكونوا قد وصلوا إلى بجراتيون بعد، إلا أن ضربات الأقدام الثقيلة سمعت منتظمة . وعلى الجناح الأيسر ، أقرب ما يكون إلى بجراتيون ، سار النقيب ، وهو رجل مستدير الوجه مهيب ، وكان هو نفسه ذلك الضابط من المشاة الذى جرى من الكوخ فى أثر توشين. وكان واضحاً أنه لا يفكر فى شىء فى تلك اللحظة ، سوى السير بنظام حسن أمام قائده ، لذا كان يمشى مشدود العضلات بارز الصدر كأنه فى عرض عسكرى . وإلى جنبه سيفه الضيق بلا غمد (وهو سيف صغير مقوس أشبه باللعبة منه بالسيف) وراح ينظر حوله ، وإلى القائد الذى صار الآن خلفه ، من غير أن تختل خطوته،

وكأن كل قوة روحه منحصرة فى حسن السير أمام قائده على أحسن وجه ممكن . وقد أحس هذا ، فظهرت للسعادة واضحة على وجهه . وكان جدار الجنود الذين يحملون بنادقهم وأكياسهم يتقدم بنفس القوة والنظام . ودار رائد بدين حول شجيرة فى الطريق وهو يلهث فى سيره. وكان أحد الجنود قد تخلف قليلا فراح يجرى وراء سريته، وقد ظهر عليه الذعر لتقصيره ، وأزت فى هذه اللحظة قذيفة مدفع مرقت فوق رأس الأمير بجراتيون وحاشيته، وسقطت وسط الطابور وارتفع صوت النقيب مدوياً :

— ضموا الصفوف !

ودار الجنود فى نصف دائرة حول شىء فى المكان الذى سقطت فيه القنبلة ، وتوانى صف ضابط من السوارى قليلا إلى جوار القتيل ثم لحق بسريته وعدل خطوته لتنتظم مع خطى الطابور ، وهو ينظر حوله بغضب ، بينما ارتفع وقع الأقدام المنتظم يشق الصمت . وقال بجراتيون :

— أحسنتم يا أولاد !

وهتف الجنود لصاحب السعادة . ونظر جندى مكفهر الوجه لى الجنرال فى صمت عابس كأنه يقول :

— نحن نعلم أننا أحسنا بغير حاجة إلى كلامك !

وصدر الأمر لهم بالوقوف وإنزال أكياسهم عن أكتافهم . ودار الأمير بجراتيون بجواده حول صفوف الجند الذين مروا به ، ثم

ترجل . وأعطى العنان لقوزاق ، وخلع عباءته وأعطاه إياها . ومد رجليه ثم سوى قلنسوته فوق رأسه ، وبدا طابور الفرنسيين وأمامهم ضباطهم لأنظاره تحت التل ، فقال بجراتيون بصوت رنان كله عزيمة :

– استعنا بالله !

والتفت إلى الخط الأمامى ، وطوح ذراعيه قليلا ومشى بخطوة تشبه حركة راكب الحصان فوق الأرض غير المستوية . وأحس أندريه أن قوة غير منظورة تجتذبه إلى الأمام وهو يحس سعادة طاغية .

(وكان هذا هو الهجوم الذى قال عنه تيير Thiers : « إن الروس كانوا فى غاية البسالة ، وحدث عندئذ ما يندر حدوثه فى الحروب ، حيث تقدمت وحدتان من المشاة كل منهما نحو الأخرى فى عزيمة وبأس ، من غير تردد أو تفكير فى التراجع » . وعنه قال نابليون فى سنت هيلانة St. Helena : « لقد أظهرت بعض كتائب الروس بسالة عظيمة ») .

(وكان الفرنسيون قريبين ، والأمير أندريه يسير بجوار بجراتيون ، فاستطاع أن يتبين وجوه الفرنسيين وأحزمتهم . بل وتبين بالذات الضابط الفرنسى المسن المقوس الساقين الذى كان يصعد التل بصعوبة ، وهو يتشبث بالشجيرات) . ولم يصدر الأمير بجراتيون أمراً جديداً ، ولم يزل سائراً أمام الصفوف بنفس الصمت . وفجأة دوت قذيفة بين الفرنسيين ، ثم أخرى ، ثم ثالثة . وتصاعد الدخان

وتسارعت الطلقات من كل الصفوف التى اضطربت وتحطمت فى طابور الأعداء . وسقط عدد من رجالنا ، ومن بينهم الضابط المستدير الوجه الذى كان منذ قليل يسير بكل عناية وثبات . ولكن مع دوى أول قذيفة التفت بجراتيون وهتف :

– مرحى ! مرحى !

فدوت الصيحة نفسها بين كل صفوف جنودنا بصوت كالرعد ، فى فرح زائط ، واندفع جنودنا يهبطون التل فى أعقاب الأعداء المندحرين .

* * *

- ١٩ -

كان هجوم القناصة على هذا النحو قد غطى تراجع الجناح الأيمن . وكانت بطارية توشين المنسية فى الوسط قد أفلحت فى إشعال النار فى شونجرابن وتعويق تقدم الفرنسيين . وبقى الفرنسيون حيث هم كى يطفئوا النار التى كانت الريح تزيدها اشتعالا ، فأفسح هذا التعويق وقتاً أمام الروس للتراجع . وكان تراجع الوسط فيما وراء الوادى الضيق سريعاً وصاخباً ، ولكن السرايا المختلفة ظلت متباعدة . أما الجناح الأيسر الذى كان مكوناً من آلايين من المشاة وآلاى خياله ، فقد هوجم من الأمام وطوق فى الوقت نفسه من الخلف من جانب خيرة الجنود الفرنسيين بقيادة « لان » Lannes ، فدبت فيه الفوضى . وأرسل بجراتيون ياوره زهيركوف إلى الجنرال قائد الجناح الأيسر يأمره بالانسحاب الفورى . وأسرع زهيركوف يحمل أوامر الأمير ويده لم تزل مرفوعة إلى قلنسوته ، ولكن ما إن ابتعد به جواده عن أنظار بجراتيون حتى خانته شجاعته ، واستولى عليه ذعر لم يستطع تمالكه ، ولم يقدر على المجازفة بنفسه حيث الخطر الداهم .

وبعد أن ركض بجواده مسافة نحو وحدات الجناح الأيسر ، لم يتجه إلى حيث كان يسمع صوت إطلاق النار ، بل ابتعد عن ذلك الموضع ليبحث عن الجنرال والضباط فى مكان لا يمكن أن يوجدوا فيه ، وهكذا لم يبلغ الرسالة التى كلف بتبليغها .

وكانت قيادة الجناح الأيسر بحكم الأقدمية من حق جنرال الآلاى الذى يخدم فيه دولوهوف . وهو الآلاى الذى كان كتوزوف قد فتشه قبل براوناو . أما قيادة أقصى اليسار فعهد بها إلى عقيد من الخيالة كان رستوف Rostov يخدم فيه . ومن هنا نجم سوء الفهم . فكل من الضابطين المتوليين القيادة كان ساخطاً على الآخر أشد السخط ، وبينما المعركة دائرة على أشدها كانا مستغرقين فى مفاوضات الغرض الوحيد منها أن يكيد كل منهما للآخر ويذله . ولم تكن الآلايات من المشاة والخيالة على السواء مستعدة للاشتباك . فلا أحد — ابتداء من الجندى العادى إلى الجنرال — كان يتوقع نشوب معركة فكان الجميع منهمكين فى شواغل سلمية ، مثل إطعام خيولهم إن كانوا من الخيالة ، أو جمع الخشب والحطب إن كانوا من المشاة .

وقال عقيد الخيالة الألمانى ، وقد احمر وجهه مخاطباً ياوراً جاءه برسالة :

— إنه أعلى منى فى الرتبة . فليفعل ما يشاء . ولكنى لن أضحى بخيالتى . يا نافخ البوق ! نوبة تقهقر !

ولكن الأمور بدأت تحتدم . وبدأت نيران المدفعية والبنادق تنهال فى آن واحد على اليمين والوسط ، وعبر قناصة « لان » فوق سد الطاحون ، وشكلوا فى هذا الجانب صفوفاً لا تكاد تبعد عن مرمى البنادق .

وسار جنرال المشاة إلى جواده فامتطاه ومد قامته ليبدو طويلا .

وركب إلى عقيد الخيالة . وتقابل الضابطان فتبادلا الانحناء بكل تهذيب ولياقة ، وهما يضمران الغضب المحتدم . وقال الجنرال :

– أنا لا أستطيع أن أترك نصف رجالى فى الغابة . أرجوك . أرجوك . أن تحتل الموقع وتتأهب للهجوم !

فأجابه عقيد الخيالة وقد احتقن وجهه :

– وأنا أرجوك ألا تتدخل فيما ليس من شأنك . ولو كنت ضابط خيالة ...

– أنا لست ضابط خيالة أيها العقيد . ولكننى جنرال روسى ، إن كنت لم تدرك الموقف ..

فصاح العقيد فجأة ، وقد صار وجهه بلون القرمز :

– بل أنا أدركه تمام الإدراك . ولو تكرمت بالتوجه إلى الجبهة لأدركت أن هذا الموقع لا يمكن احتلاله أو الدفاع عنه . وأنا لا أريد أن أفنى آلاى كى أرضيك !

– إنك تنسى نفسك يا عقيد . فأنا لا أبحث عما يرضينى ، وليست المسألة مسألة مزاج شخصى ، وأنا لا أسمح بمثل هذا القول !

واعتبر الجنرال اقتراح العقيد تحدياً لشجاعته ، فنفخ صدره وركب عابساً إلى الجبهة ، كأنما خلافهما يمكن أن يحسم هناك تحت نيران العدو . ووصلا إلى خط النار ، وأزت حولهما عدة طلقات ووقفا ساكتين ، فالنظر إلى خط النار الأمامى لم تكن منه جدوى ، فقد كان واضحاً من الموضع الذى كانا فيه من قبل أن الخيالة

لا تستطيع العمل ، بسبب الشجيرات وطبيعة الأرض الوعرة الشديدة الانحدار ، ولأن الفرنسيين كانوا قد طوقوا الجناح الأيسر ، وحدق كل من الجنرال والعقيد فى وجه الآخر كأنهما ديكان يتأهبان للقتال وكل منهما يبحث فى سلوك الآخر عن علامة جبن . وظل هذا التحديق المتبادل دقائق من غير أن يطرفا . ولم يكن هناك ما يقال . ولكن ما من واحد منهما كان يريد أن يكون البادئ بالانسحاب من تحت النيران ، فبقيا طويلا متمسكين بشجاعتهما ، إلى أن سمع من بين أشجار الأيكة صوت الرصاص وجلبة أصوات مختلطة . ذلك أن الفرنسيين كانوا يهاجمون الجنود الذين يجمعون الخشب فى الأيكة . ولم يعد الآن ممكناً للخيالة ولا للمشاة أن يتراجعوا . فقد قطع عليهم خط الرجعة إلى اليسار . ومهما بلغت وعورة الأرض فلا بد لهم الآن من الهجوم ليشقوا طريقاً لأنفسهم .

ما كادت خيالة السرية التى فيها رستوف تركب جيادها حتى كان العدو فى مواجهتهم . وهنا أيضاً – كما كان الحال عند جسر « إنز » Enns لم يكن أحد بين السرية وبين العدو . فليس هناك إلا الرعب والحيرة والشك ... كأنه الفاصل بين الحياة والموت . وكان جميع الجنود شاعرين بهذا الخط ، وقد ملأهم التوتر العصبى لأنهم لا يدرون هل يعبرونه أم لا .

وركب العقيد إلى الجبهة ، وأجاب بغضب عن أسئلة الضباط ، وراح يلقى الأوامر بلهجة الرجل الذى يتمسك بحقوقه . ولم يقل أحد

شيئاً واضحاً، ولكن سرت فى الفصيلة كلها مشاعر غامضة بالهجوم. ودوى الأمر بالاصطفاف فى تشكيل ، ثم صلصلت السيوف التى جردت من أغمـادها . ومع هذا لم يتحرك أحد . وشعرت قوات الجناح الأيسر كلها من مشاة وخيالة أن قادتهم أنفسهم لا يعرفون ماذا يجب عمله . وسرت عدوى الحيرة من القادة إلى الجنود .

وتمنى روستوف لو أسرعوا بالهجوم ، لأنه شعر أن اللحظة التى تحدث عنها رفاقه وحلم هو بحلاوتهـا قد حانت . ودوى صوت دينزوف Denisov :

— بعون الله يا فتيان ! إلى الأمام بسرعة الركض !

وبدأت جوانب الخيول تتحرك فى الخط الأمامى ، وجـذب الحصان « الرخ » عنانه وانطلق . وعن يمين رأى روستوف الصفوف الأولى من خيالته ، وأمامهم لطخة قاتمة لم يستطع تبينها بوضوح ، ولكنه حدس أنها العدو . وسمعت طلقات عن بعد .

وجلجل صـوت القائد يدعوهم لمزيد من الإسراع ، وأحس روستوف من تحته بجواده الرخ يمعن فى الركض ، وأبهجه هـذا الركض .. ثم لمح شجرة منفردة أمامه ، كانت قبالته فى البداية ، فى وسط تلك المنطقة التى تتوسط الجيشين والتى كانت تبدو له رهيبة . ولكنهم تجاوزوها الآن من غير أن يحدث شىء رهيب ، بل أحس مزيداً من الاستثارة فى كل لحظة . وسمع من ورائه هتاف الجنود وهم يهجمون :

— مرحى ! مرحى !

وعندئذ قال روستوف فى نفسه ، وهو يغرس مهمازيه فى جنبى الرخ ، ليسبق الجميع :

— ليأت الآن من شاء ! سأمزقه إرباً .

وبات العدو فعـلا واضحاً للناظر إلى الأمام . وفجأة مر فـوق الفصيلة شىء كأنه مكنسة عريضة . فرفع روستوف سيفه استعداداً لتوجيه طعنة. ولكن فى هذه اللحظة ركض الجندى نيكيتنكو Nikitenko وترك جانبه ، وأحس روستوف كأنه فى حلم ، تحمله قوة خارقة للطبيعة إلى الأمام ، ومع هذا فهو باق فى مكانه لا يتحرك! وركض خيال من الخلف اسمه بندرتشوك Bandarchuk فلحق به ورمقـه بغضب . ثم ابتعد عنه راكضاً ، وقال روستوف فى نفسه :

— ما الخبر ؟ أأنا لا أتحرك ؟ لقد سقطت ، وقتلت .

ووجد نفسه وحيداً وسط الميدان . وبدلا من حركة الجيـاد والخيالة من حوله لم ير إلا الأرض الجامدة ، وجذور النباتات ، وكان تحته دم دافئ .

— لم أمت ، بل أنا جريح والرخ قد قتل .

وحاول الرخ أن ينهض على قائمتيه الأماميتين ، ولكنه لم يستطع ، فانكفأ وهصر ساق راكبه تحت قائمته . وكان الدم يتدفق من رأس الحصـان . وكافح الحصـان ولكنه لم يستطع النهوض ، وحـاول روستوف القيام ، ولكنه سقط أيضاً على الأرض ، وكانت حمالة

سيفه مشتبكة فى السرج . ولم يعد يدرى أين كان الفرنسيون وأين كان رجالنا . فلم يكن من حوله أحد .

ولما تمكن من تخليص ساقه وقف . وعبثاً راح يسأل نفسه :

— أين إذن ذهب هذا الخط الذى كان يفصل الجيش ؟ ألم يحدث لى شىء ؟ ما العمل الآن ، وماذا يصنع الناس فى مثل هذا الموقف ؟

ولكنه أحس فى الوقت نفسه بشىء معلق بذراعه اليسرى المخدورة ، وبدا له أن المعصم لم يعد جزءاً من الذراع ، ونظر إلى يده بإمعان بحثاً عن الدم . ثم رأى بضعة رجال يجرن نحوه فقال لنفسه بفرح :

— هاهم نفر من الرجال ، ولاشك أنهم سيساعدوننى !

وأمامهم كان يجرى شخص واحد يرتدى قبعة غريبة ذات ريش ومعطفاً أزرق ، وله وجه قوى أسمر من لفح الشمس ، وأنف معقوف . ثم تبعه رجلان ، ومن خلفهما جماعة كبيرة تجرى . وقال أحدهم شيئاً بغير اللغة الروسية . وبين مجموعة أخرى عليهم نفس القبعات ذات الريش وقف خيال روسى ، وقد أمسكوا بذراعيه ، ومن كانوا خلفه كانوا قابضين على حصانه ، فراح روستوف يتساءل بينه وبين نفسه :

— لا بد أن هذا أحد جنودنا وقد وقع فى الأسر . إنهم يقيناً لن



وكافح الحصان ولكنه لم يستطع النهوض ، وحاول روستوف القيام ، ولكنه سقط أيضاً على الأرض ..

يأخذونى أيضاً ؟ أى نوع من الناس هؤلاء ؟ أيمكن أن يكونوا فرنسيين ؟

ومنذ قليل كان يتمنى الوصول إلى هؤلاء الفرنسيين ليشبعهم طعناً ، أما الآن وهم قريبون منه هكذا فقد بدا له الأمر فظيعاً حتى أنه كاد لا يصدق عينيه . ومضى يتساءل :

– من هم ؟ ولماذا يجرون ؟ ألكى يقتلونى ؟ أنا ؟ أنا الذى يحبنى الجميع ؟

وتذكر حب أمه له ، وحب أسرته وأصدقائه ، فبدت له رغبة العدو فى قتله مستحيلة .

– ومع هذا فمن الممكن أن يقتلونى !

ووقف أكثر من عشر ثوان لا يتحرك ، ولا يدرك موقفه .

وكان الفرنسى ذو الأنف المعقوف الذى يتقدمهم قد اقترب منه جداً حتى أنه استطاع أن يتبين تعبير وجهه ، وهو يجرى نحوه لاهثاً وقد خفض السونكى ، فارتاع روستوف ، وانتزع مسدسه وبدلا من إطلاقه على الفرنسيين رماه من يده نحو الرجل الفرنسى ، وجرى إلى الشجيرات بكل قوته ، مثلما يجرى أرنب تطارده كلاب الصيد، وقد استولى عليه خوف صريح على حياته وشبابه الغالى ، وراح يقفز فوق الأسيجة المنخفضة كما كان يقفز وهو يمارس ألعابه ، وجعل بين لحظة وأخرى ينظر وراءه فى ذعر ، ثم قرر أن من الأفضل ألا ينظر وراءه ، لأن الفزع كان يسرى كلما التفت فى عموده

الفقرى . إلا أنه عندما اقترب من الشجيرات التفت مرة أخرى . وكان الفرنسى قد تخلى عن المطاردة ، وعندما استدار روستوف وجده يبطئ ويتحول من الركض إلى السير ، ويستدير إلى رفاقه ويقول لهم شيئاً . وقال روستوف فى نفسه :

– لابد أن فى الأمر لبساً . لا يمكن أن يكون غرضهم قتلى .

وفى هذه الأثناء كانت ذراعه اليسرى قد ثقلت تماماً وكأن مائة رطل ترهقها بحملها . وتوقف الفرنسى أيضاً وسدد نحوه بندقيته ، فقطب روستوف جبينه وراغ بالانحناء ، ومرقت من جانبه رصاصة ثم أخرى ، وأمسك ذراعه اليسرى بيمناه ، وبذل جهداً جديداً للجرى صوب الشجيرات . وبين الشجيرات وجد قناصة من الروس.

* * *

- ٢٠ -

وكان المشاة الذين فوجئوا وهم فى الأيكة يحتطبون قد فروا ، واختلطت السرايا بعضها ببعض ، وراحت تتقهقر فى غير نظام . وكان الذعر قد استولى على أحد الجنود فصاح :

— لقد أحيط بنا !

فسرت من هذه الكلمات عدوى الذعر إلى المجموعة كلها وراحوا جميعاً يصيحون وهم يولون الأدبار :

— طوقونا ! أحاطوا بنا ! ضعنا !

وعندما سمع جنرالهم الرصاص والصياح فى المؤخرة أدرك على الفور أن شيئاً فظيعاً قد حدث لآلايه ، واعتقد أنه — وهو الضابط المثالى الذى خدم سنوات طويلة بدون تقصير من أى نوع — قد يعد فى نظر رؤسائه مسئولا عن الإهمال أو نقص الانضباط ، فنسى على الفور موقف عقيد الخيالة ، ونسى الخطر المحدق ، وركز جواده وانطلق بأقصى سرعة إلى الآلايه تحت وابل من الرصاص الذى أخطأه لحسن الحظ . فقد كانت مستولية عليه رغبة واحدة هى اكتشاف موضع الخلل وإصلاح الخطأ أياً كان ، وهل هو المتسبب فيه ، كى يتجنب المسئولية عنه بعد خدمة مثالية على مدى اثنين وعشرين عاماً .

وأفلح فى المروق بين القوات الفرنسية حتى وصل إلى الحقل الذى يلى الأيكة ، حيث وجد رجالنا يجرون ليهبطوا التل ، غير ملتفتين إلى صيحاته وأوامره . وهكذا حانت اللحظة التى تحسم فيها

مصائر المعارك . فهل يسمع هؤلاء الفارين بغير نظام صوت قائدهم ، أو يلتفتون إلى الوراء نحوه ؟ ولو فعلوا أيواصلون الفرار ؟ برغم ما كان يوحيه إليهم سابقاً من رهبة وخوف ، وبرغم سيفه المسلط وصياحه المدوى ، لم يزل الجنود ممعنين فى الفرار ، ويكلمون بعضهم بعضاً ، ويطلقون الرصاص فى الهواء غير مصغين لأوامر قائدهم . وهكذا اكتسح الذعر زمام الجنود ومال ميزان المعركة .

وكاد الجنرال يختنق من الدخان وقد بح صوته ، فجمد فى مكانه يائساً ، وقد بدا له أن كل شىء ضاع . ولكن فى هذه اللحظة جرى الفرنسيون فجأة مرتدين لسبب غير مفهوم ، واختفوا من حوافى الأيكة ، وظهر قناصة الروس فى هذه الأيكة . وكانت هذه الفصيلة هى فصيلة تيموهين Timohin ، وهى الوحيدة التى احتفظت بنظامها فى الأيكة ، وقد كمنت فى الخندق ، ووراء مجموعة الأشجار وفجأة هاجمت الفرنسيين ، واندفع تيموهين وهو يطلق صيحة هائلة نحو الفرنسيين ، وليس فى يده إلا سيفه ، فألقى الفرنسيون أسلحتهم وفروا من غير أن يغطوا انسحابهم . وكان دولوهوف يركض بجوار تيموهين ، فقتل جندياً فرنسياً عن قرب ، وكان أول من قبض على ضابط فرنسى من ياقته فاستسلم له . وعاد الروس الفارون ، واجتمع شمل الكتيبة ، وإذا بالفرنسيين الذين كانوا على وشك شق الجناح الأيسر الروسى إلى شطرين وقد صدوا على أعقابهم . وانفسح الوقت أمام قوات الاحتياط كى تنضم إلى القوات الأصلية ، وتوقف الفرار

تماماً. ووقف الجنرال مع الرائد إيكونوموف Ekonomov عند الجسر يرقب السرايا المرتدة وهى تمر به ، عندما جرى نحوه جندى وتعلق بركابه ، وكان هذا الجندى يرتدى سترة من القماش الأزرق الفاخر ، وليس يحمل كيساً ولا على رأسه قلنسوة ذات ريش ، ورأسه معصوب ، وقد علق على صدره حافظة فرنسية للرصاص ، وكان يمسك بيده سيف ضابط . أما وجهه فكان شاحباً ، ولكن عينيه تحدقان بلا وجل فى وجه الجنرال . ومع أن الجنرال كان مشغولا بإصدار تعليمات إلى الرائد ، إلا أنه لم يسعه إلا أن يلتفت إلى هذا الجندى .

وقال دولوهوف ، مشيراً إلى السيف وحافظة الرصاص :

— يا صاحب السعادة ! هاتان غنيمتان فرنسيتان . وقد أسرت ضابطاً فرنسياً . والوحدة كلها تشهد على صدق قولى . فأرجوك أن تتذكرنى يا صاحب السعادة !

فقال الجنرال :

— حسن جداً . حسن جداً !

والتفت إلى الرائد إيكونوموف . ولكن دولوهوف لم يتركه ، بل نزع الضماد عن رأسه وأراه الدم المتجلط فوق الجرح .

— جرح سونكى يا صاحب السعادة ! وقد ثبت فى مكانى بالمقدمة . تذكرنى يا صاحب السعادة !

* * *

وكانت بطارية توشين قد نسيت ، وفى نهاية العمليات سمع الأمير بجراتيون قصف المدافع مستمراً فى الوسط ، فأرسل ضابط الأركان المنوب ثم الأمير أندريه ليأمرا البطارية بالانسحاب بأسرع ما تستطيع . وكانت القوة المرابطة قرب مدافع توشين لحمايتها قد تركت مكانها بأمر شخص ما فى عنفوان المعركة . ولكن البطارية ظلت تطلق نيرانها ، ولم يستول عليها الفرنسيون لأن الأعداء لم يتصوروا جسارة أربعة مدافع على القصف بدون حماية . وقر فى أذهانهم لفرط نشاط البطارية أن القوات الروسية الرئيسية كانت مرتكزة هناك فى الوسط ، وحاولوا مرتين الهجوم على هذا الموضع ولكن ردتهم القنابل المنهمرة من المدافع الأربعة الرابضة وحدها فوق المرتفع ! وقد نجح توشين بعد أن فارقه الأمير بجراتيون فى إشعال النار فى شونجرابن . وعندئذ ارتفعت روح المدفعية المعنوية وهللوا :

— انظروا ما هم فيه من ورطة ! القرية تشتعل ! يا له من حريق ! يا له من دخان !

واتجهت كل المدافع — بدون تعليمات — إلى موقع النيران ، وكلما انصبت القذائف هتف الجنود . وكانت الرياح النشطة تزيد النار اشتعالا ، فسرت فى كل مكان . وعادت الطوابير الفرنسية التى كانت قد غادرت القرية لتطفئ النار ، ونصبوا بجوار القرية عشرة مدافع صوبوها نحو توشين ، كأنما لينتقموا منه !

ووسط ابتهاج مدفعينا لم يتنبهوا للمدافع العشرة إلا عندما سقطت قنبلتان بين مدافعنا ، ثم أربع قنابل ، وقتلت إحداها حصانين ، وأطاحت الثانية بقدم مدفعي . ولكن روحهم المعنوية لم تهبط ، فاستبدلوا بالحصانين غيرهما من عربات الذخيرة وصوبت المدافع الأربعة نحو المدافع الفرنسية العشرة . وقتل ضابط زميل لتوشين فى بداية العمليات ، وبعد ساعة من الزمن كان سبعة عشر من الأربعين مدفعياً قد أصيبوا ، ولكن الباقين ظلوا على مرحهم الزائط وهمتهم العالية وحماستهم . ومرتين لمحوا فرنسيين أسفلهم ، وصوبوا نحوهم مدافعهم فردوهم .

وأما توشين فظل يروح ويغدو بين المدافع ، وهو يضع يده الصغيرة فوق عينيه لينظر إلى مواقع الفرنسيين ، ويشعل غليونه القصير بلا توقف ، ويشجع جنوده بكل حماسة . ولا يتأخر عن مساعدة كل مجموعة فى حشو المدفع وتهيئتها للإطلاق . وكان جسمه الهزيل يرتج مع كل قذيفة ، ثم يرتفع هتافه لدقة الإصابة . ولم يكن يعبس إلا عندما يجرح أحد من رجاله أو يقتل ، ويشيح عن القتيل مرتجفاً ، ويصيح برجاله كى يرفعوا الجثة أو ينقلوا الجريح . ومع أن جميع رجاله كانوا أطول منه وأعرض بكثير ، إلا أنهم كانوا ينظرون إليه كما ينظر الأطفال فى وقت الشدة إلى مصدر الحكمة والإرشاد ، وكانوا يجدون مشاعرهم منعكسة دائماً على وجهه المستدير الصغير .

وبسبب القصف المستمر جرفته الحماسة ، فلم يشعر قط بالخوف أو الفزع ، ولم يخطر بباله قط أنه قد يجرح أو يقتل فى المعركة . بل بالعكس شعر بمزيد من الحيوية . وخيل إليه أن اللحظة التى لمح فيها العدو لأول مرة وأطلق قذيفته الأولى عليه كانت منذ أمد طويل جداً . ألعلها كانت بالأمس ؟ وغدت هذه البقعة التى يقف عليها مألوفة له جداً ، كأنما عاش عليها منذ زمن مديد ، ومع أنه كان يقوم بكل واجباته كأحسن ما يقوم بها ضابط ، إلا أنه لم يكن واعياً بما يصنع ، ولا يفكر فيه ، بل كأنه لفرط الحماسة فى حمى ، أو فى مثل هذيان الثمل ...

فالصوت الذى يصم الآذان المنبعث من مدافعه من كل جانب ، وأزيز قذائف العدو وصوت ارتجاجها ، وطلقات الرصاص المنهمر ومنظر رجاله وهم لا يكفون عن الحركة والعمل بين المدافع ، ومشهد الدماء المنبجسة من الرجال والخيول ، والدخان المتصاعد من مدفعية العدو على الجانب الآخر (وتعقبه دائماً قذائف تمرق فوقهم وترتطم بالأرض أو بحصان أو جندى أو بمدفع) - كل هذه الصور خلقت حوله عالماً خاصاً به ، ووجد فيه متعة فى حينه . وكانت مدافع العدو فى توهمه ليست مدافع ، بل غلايين تنفث الدخان بين الحين والحين ، كأنما كل غليون منها فى فم مدخن خفى . فكان توشين يقول لنفسه عندما يرى سحابة من الدخان تنطلق أمامه وتحملها الريح نحو اليسار :

– ها هو ينفث نفثة أخرى . والآن هات قنبلتك !

وقال له مدفعى من جنوده سمعه يغمغم لنفسه شيئاً :

– ما الخبر يا صاحب العزة ؟

فأجابه :

– لا شىء . قنبلة . والآن هات ما عندك يامتفيفنا Matvyevna

فقد كان هذا هو الاسم الذى أطلقه فى مخيلته على مدفعه الكبير المستقر فى الطرف الأقصى . وكان الفرنسيون يبدون له كالنمل وهم يتحركون حول مدافعهم . أما الجندى الوسيم الثمل من رجاله الذى يتولى المدفع الثانى فكان اسمه فى مخيلته « العم » ، وكان توشين ينظر إليه أكثر مما ينظر إلى الآخرين ، وتسره كل حركة من حركاته . أما طلقات الرصاص المستمرة أسفل التل فكانت فى توهمه أصوات تنفس كائن خرافى ، وكان ينصت بإمعان لشهيقه وزفيره . ويقول لنفسه :

– ها هو يأخذ نفساً آخر .

أما هو شخصياً فكانت صورته عن نفسه أنه عملاق هائل يقذف قنابل المدافع على الفرنسيين بكلتا يديه ! وراح يشدد عزائم جنوده ويحثهم ، وإذا بصوت غير مألوف يناديه من فوق رأسه :

– النقيب توشين ! يا نقيب !

واستدار ينظر فى فزع ، فإذا نفس ضابط الأركان الذى أخرجه من الكانتين فى جرونت ، وهو يصيح به فى صوت لاهث :

– أمجنون أنت ؟ لقد وصلتك الأوامر مرتين بالتراجع والانسحاب ، ولكنك ...

ورفع توشين ثلاث أصابع إلى قلنسوته وبدأ يقول :

– أنا لم ...

ولكن فى هذه اللحظة مرقت من فوق ضابط الأركان قذيفة ، فال فوق سرجه ليروغ منها ، ثم حاول أن يعتدل ، فمرقت بجانبه قذيفة أخرى ، فدار بجواده وأسرع بالرجوع من حيث أتى .

وصاح توشين برجاله عن بعد :

– انسحاب ! الجميع ينسحبون !

وضحك الجنود ، وبعد دقيقة جاء ياور بنفس الرسالة ، وكان هذا الياور هو الأمير أندريه . وكان أول شىء رآه عند وصوله إلى موقع مدافع توشين حصان مكسور الساق يصهل بشدة إلى جوار الخيول الأخرى ، والدم يتدفق من ساقه . وبين مصاطب المدافع عدة رجال قتلى . وجعلت القنابل تمرق من حوله تباعاً وهو يقترب فأحس رجفة تسرى فى عموده الفقرى . ولكن مجرد تفكيره فى أنه خائف كان كافياً لاستنهاض همته ، وقال لنفسه :

– لا يمكن أن أكون مذعوراً .

وترجل عن جواده بأناة بين المدافع ، وأبلغ رسالته ، ولكنه لم يغادر البطارية ، بل قرر البقاء والمساعدة فى تحريك المدافع من

الموقع وإبعادها . وتخطى الجثث تحت نيران الفرنسيين المخيفة وساعد توشين فى إعداد المدافع للتحرك .

وقال مدفعى للأمير أندريه :

— الضابط الذى جاء منذ قليل جرى بأسرع مما أقبل . وليس مثل فخامتك !

ولم يجر حديث بين أندريه وتوشين ، لأن كليهما كانا مشغولين حتى كأن أحداً منهما لا يرى الآخر . وبعد أن تم نقل المدفعين غير المعطوبين إلى منصتيهما ، وشرعا يهبطان التل . اتجه أندريه إلى توشين ومد له يده قائلا :

— حتى نلتقى مرة أخرى !

فقال توشين وقد طفرت الدموع إلى عينيه لسبب غير معلوم :

— إلى اللقاء يا صديقى العزيز ! إلى اللقاء يا صديقى العزيز !

* * *

- ٢١ -

وسكنت الريح ، ولكن سحباً سوداء رانت فوق ساحة القتال تنذر بعاصفة ، واختلطت عند حافة الأفق بسحب الدخان المتجمعة من البارود . وخيم الظلام ، فظهرت شعلات الحرائق بوضوح فى موضعين . وقل قصف المدافع ، ولكن دوى الرصاص فى المؤخرة ومن جهة اليمين صار أقرب للسمع وأغزر . وما إن ابتعد توشين عن مرمى النيران ، ودار حول القتلى والجرحى ، وأخذ يهبط إلى الوادى الضيق ، حتى التقى بضباط الأركان . ومن بينهم ضابط الأركان الذى طرده من الكانتين ، وزهيركوف الذى كان قد أرسل مرتين إلى بطارية توشين ، ولكنه لم يصل إليها قط . وتنافس الاثنان فى إلقاء الأوامر إليه ، أين يجب أن يمضى وكيف ، ويوجهان إليه الانتقادات. ولم يلق توشين بأى أمر إلى جنوده ، لأنه أحس لو تكلم بأنه سوف ينفجر باكياً ، فركب حصانه ومضى خلف الجنود صامتاً .

ومع أن الأوامر كانت قد صدرت بالتخلى عن الجرحى ، إلا أن الكثيرين منهم جروا أنفسهم جراً خلف الوحدات وراحوا يتوسلون ليضعوهم فوق المدافع ، فرفع الجنود ضابط المشاة القوى — الذى كان قد جرى خارجاً من الكوخ خلف توشين — فوق كرسى المدفع الكبير « متفييفنا » وفى معدته رصاصة — وعند أسفل التل أقبل صف ضابط (حامل علم) شاب يمسك إحدى يديه بالأخرى

– وهو من فرقة الفرسان – وتوسل إلى توشين أن يحمله أيضاً على كرسى مدفع . وقال بحياء :

– سيادة النقيب . أرجوك . أناشدك الله ! لقد أصيبت ذراعى ولا أستطيع المشى ، أرجوك !

وكان واضحاً من لهجته أن هذه ليست أول مرة يلتمس فيها هذا الشاب مكاناً فوق مدفع أو عربة ، وأنه كان يقابل بالرفض باستمرار . لذا كان يتوسل فى خجل وبتردد وبصوت يثير الشفقة .

– مرهم من فضلك أن يتركونى أركب . ناشدتك الله !

فقال توشين لجنديه الأثير الثمل الشجاع :

– دعوه يركب . دعوه يركب . وضعوا تحته سترة . اهتم به ياعمى اجلس أيها العزيز اجلس ضع السترة هناك ياأنتونوف Antonov

وكان هذا الشاب الجريح هو روستوف ، وقد أمسك إحدى يديه بالأخرى . وكان شاحباً ونصف وجهه الأدنى يرتجف كأنه محموم . ووضعه الجنود فوق « متفييفنا » ، وهو المدفع الذى كانوا منذ لحظة قد أنزلوا عنه الضابط الذى مات . وكانت السترة التى وضعوها تحته ملطخة بالدم ، وكان سروال ركوب روستوف ، وذراعه ملطخين بالدم أيضاً . واتجه توشين إلى المدفع الذى فوقه روستوف وقال برفق :

– أأنت جريح يا عزيزى ؟

– لا . إنه التواء .

– من أين هذا الدم إذن ؟

فقال أحد المدفعية ، وهو يمسح الدم بكم سترته عن هيكل المدفع كالمعتذر :

– إنه الضابط الذى كان جالساً هنا – هو الذى لطخه ...

وبمشقة ، وبمساعدة من جنود المشاة سحبوا المدفعين صاعدين التل ، وتوقفوا عندما وصلوا إلى قرية جونترسدورف Guntersdorf وكان الظلام قد احلولك الآن بحيث لا يستطيع المرء تمييز أثواب الجنود على مسافة عشر خطوات ، وبدأ إطلاق الرصاص يتراخى. وفجأة ارتفع قصف نيران ، وأصوات صياح على الجانب الأيمن ، وأمكن تبين وميض الطلقات فى الظلام . وكان هذا آخر هجوم للفرنسيين . وقوبل بكمين من الجنود فى بيوت القرية . وأسرع الجميع خارجين من القرية مرة أخرى . ولكن مدافع توشين كانت عاجزة عن الحركة ، وكذلك المدفعيون . وتبادل توشين وروستوف النظرات فى توقع للمصير الأخير . وبدأ التراشق بالنيران على الجانبين يخف . وتدفق بعض الجنود من شارع جانبى وهم يتبادلون الحديث السريع :

– أأصبت يا بتروف Petrov

– لقد أصليناهم ناراً حامية يا أولاد . ولن يزعجونا بعد الآن .

– لم يكن أحد يرى شيئاً . وأظنهم أطلقوا النار بعضهم على بعض ! الظلام دامس يا رفاق ! أليس هنا شيء نشربه ؟

وتم صد الفرنسيين للمرة الأخيرة ، ومرة أخرى واصل مدفعا توشين سيرهما قدماً ، ومن حولهما جنود المشاة ، الذين تواصل بينهم طنين الأحاديث !

كانوا يتدفقون فى الظلام كأنهم نهر غير منظور ، وكلهم ماضون فى اتجاه واحد ، بنم عليهم لجب مختلط من همس الأحاديث واصطكاك الحوافر وقعقعة العجلات . وفوق كل هذه الأصوات كانت ترتفع أنات الجرحى وصراخهم ، فتمزق حجاب الظلام وتشق ستر الليل ، وكان هذا الأنين المتجاوب من كل ناحية يعلو من حول الجنود ، حتى ذاب الأنين والظلام فى كيان واحد حالك . وبعد قليل سرت فى الجنود هزة ، لأن رجلا يمتطى جواداً أبيض وتتبعه حاشية مر بهم وقال شيئاً ما . وتعالت تساؤلات ؟

— ماذا قال ؟ أقال أين نحن ماضون الآن ؟ أسوف نتوقف ؟ شكرنا ؟

ولم تلبث الحركة أن توقفت ، وتضاغطت الجميع . لأن الأمر صدر بالوقوف هنا فوقفوا فى الطريق الموحل حيث هم .

وأوقدت النيران ، وبدأت الأحاديث تشتجر . أما النقيب توشين فبعد أن أصدر إلى بطاريته الأوامر أرسل بعض الجنود ليأتوا بنقالة أو طبيب للشاب المصاب ، ثم جلس بجوار النار التى كان جنوده قد أشعلوها بجوار الطريق . وجر روستوف نفسه أيضاً إلى قرب النار ، وكان جسمه كله يرتجف بالحمى والألم والبرد والرطوبة.

وقد ثقلت عليه الرغبة فى النوم ، ولكنه لم يستطع النوم لشدة تألمه من ذراعه الذى كان كل وضع يضعه فيه يزيد وجعه . فأغلق عينيه ، ثم فتحهما وحدق فى النار التى خيل إليه أنها شديدة الحمرة تكاد تخطف بصره ، ثم نظر إلى هيكل توشين الواهن الذى كان مقعياً بالقرب منه على طريقة الأتراك . وكانت عينا توشين الكبيرتان الحانيتان الذكيتان مثبتتين عليه فى تعاطف وإشفاق . فأدرك أن توشين كان يتمنى من كل قلبه أن يساعده ، ولكنه لا يستطيع له شيئاً .

وكانا يسمعان من كل جانب وقع خطوات جنود المشاة ولغط أحاديثهم وهم يروحون ويغدون ثم يستقرون حولهما . وعن بعد تترامى إليهما أصوات خوض حوافر الجياد فى الوحل ، وقرقعة الحطب وهو يشتعل ، وكأن هذا كله هدير مختلط متماوج من حولهما .

ولكن ما كان من قبل نهراً يتدفق على الطريق ، صار الآن بحراً موحشاً فى الظلام لم يزل موجه يعانى من اصطخاب عاصفة عاتية أخذت تجنح أخيراً للهدوء . وراح روستوف يحملق ويصغى لما يدور أمامه ومن حوله . وأقبل جندى مشاة نحو النار ، وأقعى على عقبيه ، ومد كفيه للهيب النار وأدار لها وجهه ، ثم قال وهو ينظر مستفسراً إلى توشين :

— ألدى فخامتك مانع ؟ لقد ضللت عن سريتى يا صاحب الفخامة . ولم أعد أدرى أين أنا ...

ومع الجندى اقترب ضابط مشاة معصوب الوجه ، وطلب من



وحدق فى النار التى خيل إليه أنها شديدة الحمرة تكاد تخطف بصره ، ثم نظر إلى هيكل توشين الواهن ..

توشين تحريك أحد المدفعين قليلا كى تمر عربة مئونة . وفى أثر الضابط أقبل جنديان يجريان نحو النار ، وهما يتشاجران ويتشاتمان ، وكل منهما يحاول انتزاع حذاء من الآخر ! .. ثم أقبل جندى نحيف ، وظهره مربوط بخرقة ملطخة بالدم ، وبصوت صارخ ساخط طلب من جنود المدفعية جرعة ماء ، وقال :

— اكتب على الواحد منا أن يموت كالكلب ؟

فأمر توشين بإعطائه الماء . وتلاه جندى ضاحك طلب جمرة نار للمشاة وهو يقول :

— أعطوا للمشاة جانباً من ناركم ! كم أسعدنا أن نقف يا أولاد شكراً لكم على قرض النار . لسوف نردها لكم مع الفوائد !

ثم انصرف بشعلته ضاحكاً يشق بها الظلام .

وبعد ذلك مر أربعة جنود ، حاملين شيئاً ثقيلا فى معطف ، وتعثر أحدهم . وصاح آخر :

— يا للشيطان ! لقد تركوا الحطب فى الطريق .

وقال آخر منهم :

— إنه ميت . فلماذا نحمله ؟

وصاح ثالث :

— هيا ولا تكثر الكلام .

وابتعدوا بحملهم واختفوا به فى الظلام . وسأل توشين روستوف

— أتشعر بألم شديد ؟

— نعم .

وقال أحد المدفعية وقد أقبل نحو توشين :

— فخامتك مطلوب لمقابلة الجنرال . وهو فى كوخ ها هنا .

فقال توشين لردستوف :

— سأغيب لحظة يا عزيزى .

ونهض وسار مبتعداً عن النار ، وهو يزرر سترته ويسوى هندامه .

* * *

وفى كوخ كان قد أعد له غير بعيد من النار التى أوقدها رجال المدفعية كان الأمير بجراتيون جالساً يتناول عشاءه ، ويتحدث مع عدد من الضباط القادة الذين تجمعوا حوله . وكان العقيد القصير المسن ذو العينين نصف المغلقتين موجوداً ، وهو « يعضعض » عظمة من عظام الضأن ، وكذلك الجنرال الذى قضى ٢٢ عاماً فى الخدمة الممتازة وقد احمر وجهه بتأثير ما أكل من الطعام وما شرب من الفودكا ، وأيضاً ضابط الأركان الذى يلبس خاتماً ، وزهيركوف ، وكل منهما يختلس نظرة قلقة إلى الآخر . أما الأمير أندريه فكان شاحب اللون مزموم الشفتين وعيناه لامعتان كعينى المحموم .

وفى ركن من حجرة ذلك الكوخ علم فرنسى أسره الجنود ، وقد انصرف مراجع الحسابات الساذج الوجه إلى فحص قماشه وهو

يهز رأسه فى حيرة ، إما لأن النظر إلى الراية كان يثير اهتمامه حقاً ، وإما لأن منظر العشاء لم يرقه ، لأنه كان جائعاً ، ولكن أحداً لم يعد له مكاناً على المائدة . وفى الكوخ المجاور كان العقيد الفرنسى الذى أسره الخيالة . وضباطنا يتقاطرون لينظروا إليه . وشكر الأمير بجراتيون الضباط القادة ، وسأل عن تفصيلات المعركة وعن الخسائر ، وقال الجنرال الذى جرى تفتيش آلايه فى براونا وللأمير إنه بمجرد أن بدأ الاشتباك ، ارتد بقواته عن الأيكة ، وحشد الجنود الذين كانوا يحتطبون ، وجعلهم يمرون أمامه ، ثم قام بهجوم بالسونكى بكتيبتين وصد الفرنسيين .

— وبمجرد أن رأيت الكتيبة الأولى يا صاحب السعادة يشيع فيها الاضطراب ، وقفت فى الطريق وقلت لنفسى : « سأتركهم يخترقوننا ثم أفتح عليهم النار » وهذا ما صنعته فعلا .

وكان الجنرال يتوق إلى هذا فعلا ، وقد ندم لأنه لم يفلح فى هذا ، ولذا خيل إليه الآن أن ذلك هو ما حدث فعلا ! ومن ذا يستطيع فى هذه الفوضى أن يميز بين ما حدث وما لم يحدث ؟

واستطرد بعد ذلك يقول وقد تذكر دولوهوف وحديثه مع كتوزوف :

— وبهذه المناسبة أود أن أذكر يا صاحب السعادة أن النفر دولوهوف — الذى كان ضابطاً وأنزل إلى نفر — أسر ضابطاً فرنسياً أمام عينى وتميز ببسالته وحسن بلائه فى المعركة .

وقال زهيروف وهو ينظر حوله بقلق :

– وقد رأيت بنفسى يا صاحب السعادة هجوم فرسان بفلوجراد Pavlograd ،وقد حطموا للفرنسيين مربعين يا صاحب السعادة .

فالحقيقة أنه لم ير هذا بنفسه ، بل سمع به من أحد ضباط المشاة .

ولما بدأ زهيركوف فى الكلام ، ابتسم عدة ضباط ، لأنهم توقعوا منه نكتة كالعادة ، ولكنهم عندما وجدوه يستطرد ويطنب فى الثناء على أسلحتنا فى هذا اليوم ، فاءوا إلى الجد ، وإن كان كثيرون منهم يدركون أن معظم كلامه لا أساس له إطلاقاً . والتفت الأمير بجرايتون إلى العقيد المسن :

– أشكركم جميعاً أيها السادة ، فكل فروع الجيش قاتلت ببسالة : مشاة وخيالة ومدفعية . ولكن كيف تخلينا عن مدفعين فى الوسط ؟

والتفت حوله كمن يبحث عن شخص ما ، ولم يسأل عن المدافع التى كانت على اليسار ، فقد كان يعلم أنهم تخلوا عنها منذ بداية العمليات . وسأل ضابط الأركان :

– أظننى أرسلتك أنت .

فأجه ضابط الأركان .

– لقد أصيب أحدهما ، أما الآخر فلا يمكننى تفسير ما حدث له . لقد كنت هناك طول الوقت أصدر التعليمات بنفسى ، ولم أكد أبارح مكانى .. وكان القتال محتدماً حقاً ...

وعندئذ قال أحدهم : إن النقيب توشين فى مكان قريب ،

بالقرية ، وأنهم قد أرسلوا فعلا فى طلبه . وقال الأمير بجراتيون للأمير أندريه :

– أوه . ولكنك ذهبت إلى هناك .

فقال ضابط الأركان ، وهو يبتسم لبلكونسكى بدماثة :

– طبعاً . لقد توجهنا إلى هناك فى وقت واحد تقريباً .

فقال الأمير أندريه ببرود واقتضاب :

– لم يسعدنى الحظ برؤيته !

وساد الصمت .

وظهر توشين فى فتحة الباب ، وهو يمشى بخجل كالمتسلل وراء ظهور الجنرالات ، ودار حول حشدهم فى ارتباكه المعهود أمام ذوى الرتب العليا . ولم ير توشين سارية العلم الفرنسى فتعثر بها ، وضحك عدد من الضباط .

وسأله بجراتيون وهو مقطب الجبين فى وجه الضباط الذين ضحكوا وكان زهيركوف أعلاهم صوتاً :

– كيف حدث أننا تخلينا عن مدفع .

وأدرك توشين وهو بين يدى قائده الغاضب فداحة جريمته ومدى العار الذى تسربل به وقد بقى حياً بعد أن فقد مدفعين . ولم يكن لفرط استثارته بالمعركة قد فكر فى هذا حتى تلك اللحظة . وكان ضحك الضباط قد زاد من ارتباكه ، فوقف أمام بجراتيون وفكه الأسفل يرتجف ، وتلعثم :

— لست أدرى يا صاحب السعادة ... لم يكن عندى ما يكفى من الرجال ... يا صاحب السعادة .

— كان فى وسعك أن تستعين بجنود من الكتائب التى تحمى موقعك !

ولم يقل توشين إنه لم تكن هناك كتائب لحمايته ، مع أن هذا هو الواقع . فقد خشى أن يوقع ضابطاً آخر فى مشكلة إن قال هذا . ومن غير أن يقول شيئاً راح يحدق فى وجه بجراتيون ، كى يحملق التلميذ المرتبك فى وجه الممتحن !

وطال الصمت . ومع أن الأمير بجراتيون لم يكن يريد أن يكون قاسياً ، إلا أنه لم يجد ما يقال . والضباط الآخرون لم يتدخلوا . وكان الأمير أندريه ينظر من تحت حاجبيه إلى توشين ، وهو يحرك أصابعه بعصبية .

وأخيراً خرق الأمير أندريه الصمت بصوته الحاد :

— يا صاحب السعادة . إنك أرسلتنى إلى بطارية النقيب توشين ، فذهبت إليها ووجدت ثلثى رجاله وخيوله قتلى ، ووجدت مدفعين معطوبين ، ولم تكن بالقرب منه قوات لمساعدته !

ونظر الأمير بجراتيون وتوشين معاً إلى الأمير أندريه بتركيز شديد ، وهو منطلق فى كلامه بانفعال مكتوم قائلا :

— وإن سمحت لى يا صاحب السعادة أن أعبر عن رأيى ، فنحن

مدينون بنجاح معركة اليوم لنشاط هذه البطارية وثبات النقيب توشين ورجاله ، أكثر من أى عامل آخر .

وما إن فرغ الأمير أندريه من كلامه حتى نهض عن المائدة وانصرف من غير أن ينتظر رداً .

ونظر الأمير بجراتيون إلى توشين ، كارهاً أن يكذب الأمير أندريه ورأيه الواضح ، وفى الوقت نفسه غير قادر على أن يثق به كل الثقة . فأحنى رأسه وقال لتوشين إن فى وسعه الانصراف . وخرج الأمير أندريه فى أعقابه . وقال له توشين :

— أشكرك يا عزيزى ، فقد أنقذتنى من مأزق ...

ونظر الأمير أندريه إلى توشين ، ثم ابتعد من غير أن يقول شيئاً . فقد كان يشعر بالمرارة والأسى . كان الأمر يبدو له غريباً جداً ، ومختلفاً أشد الاختلاف عما كانت تدور حوله آماله .

* * *

وقال روستوف فى نفسه وهو ينظر إلى الأشباح التى كانت تمر من حوله فى الظلام :

— من هم ؟ ولماذا هم هنا ؟ وماذا يريدون ؟ ومتى ينتهى هذا كله ؟

وصار ألم ذراعه أشد وأقسى من ذى قبل ، والنوم فى الوقت نفسه صار سلطانه عليه أشد وأثقل ، وأخذت دوائر حمراء تتراقص أمام عينيه ، وانطباع هذه الأصوات وهذه الوجوه ، والإحساس

بالوحدة ، يزيد من شدة آلامه وتعاسته . إن هؤلاء الجنود ، الجرحى منهم وغير المصابين على السواء ، هم الذين يسحقونه تحت وطأتهم ، ويلوون عروقه ويحرقون لحم ذراعه وكتفه . ولكى يتخلص منهم أغمض عينيه .

وغفا لحظة . ولكنه فى هذه الفترة القصيرة حلم بأشياء لا تحصى ، رأى أمه ويدها الكبيرة البيضاء ، ورأى كتفى سونيا النحيلتين ، ورأى عينى نتاشا وضحكتها ، ورأى دينزوف Denisov بصوته وشاربه ، وتليانين Telyanin وكل ما كان بين تليانين وبوجدانتش Bogdanitch ، وكانت مسألتهما مختلطة بصورة ذلك الجندى ذى الصوت الأجش . وكانت هذه الرؤى كلها تعصر ذراعه وتلويها فى نفس الاتجاه . وجعل يحاول الخلاص منهم ، ولكنهم رفضوا أن يتركوا كتفه ثانية واحدة . وما كانت كتفه لتؤلمه لو أنهم لم يجذبوها . ولكن لا سبيل إلى الخلاص منهم .

وفتح عينيه ونظر إلى أعلى ، وكان ستار الظلام الأسود الكثيف لا يكاد يعلو فوق النار بأكثر من أقدام قليلة . وفى ضوء النار كانت شرائح من الجليد ترفرف وتتساقط . ولم يكن توشين قد عاد ، ولا الطبيب جاء . كان وحده ، وليس بقربه الآن إلا جندى واحد عار فى الناحية الأخرى من النار ، يدفئ بدنه الأصفر الناحل .

وقال روستوف فى نفسه :

— لا أحد يبالى بى ! لا أحد يريد أن يساعدنى . ولا أحد

يرثى لحالى . وقد كنت يوماً ما فى بيتى سعيداً محبوباً .

وتنهد ، ومع التنهد صعد — وهو لا يدرى — آهة توجع .
فسأله الجندى العارى وهو يهز قميصه أمام النار :

— أتتألم ؟

ومن غير أن ينتظر منه رداً أردف بصوت أجش :

— آه !.. ما أكثر من هلكوا اليوم ! هذا فظيع !

ولم يسمع روستوف الجندى ، بل راح ينظر إلى شرائح الجليد التى تتساقط على النار ، وفكر فى الشتاء الروسى فى بيته الدافئ الذى يتلألأ بالأضواء ، وفى عباءته المصنوعة من الفراء ، وزحافته السريعة ، وصحته الجيدة ، وكل ما يشعه جو أسرته من حب وحنان ، وتساءل متعجباً :

— وماذا جئت أنا أصنع ها هنا ؟

وفى اليوم التالى لم يجدد الفرنسيون الهجوم ، وانضم من تبقى من فيلق بجراتيون إلى جيش كتوزوف .

* * *

القسم الثالث

- ١ -

لم يكن من عادة الأمير فاسيلى أن يفكر فى خططه ، ولا كان من عادته أن يفكر فى الإضرار بالآخرين فى سبيل مصالحه الخاصة، فهو بكل بساطة رجل نجح فى الحيـــاة ، وقد تعود هذا النجاح . وكانت خطط كثيرة تتكون فى عقله باستمرار بحكم الظروف ، وبتأثير من يلتقى بهم من الناس ، إلا أنه لم يكن يطيل التمعن فيهـا ، مع أنها تتعلق بكل ما يعنيه ويثير اهتمامه من أمور حياته . ولم يكن مايدور برأسه – بلا تدبر – خطة واحد أواثنتين ، بل عدد لا حصر له فى آن واحد، بعضها بازغ ، وبعضها الآخر كاد يحقق أهدافه ، وبعضها الثالث لم يتمخض عن شىء . فهو لم يقل قط لنفسه مثلا :

– هذا الرجل صار الآن فى السلطة ، ولابد لى أن أنمى صداقته وأحوز ثقته ، وعن طريقه أحصل على منحة من صندوق المعـونة الفردية .

أو مثلا أيضاً :

– ها هو بيير قد صار ثرياً جداً ، ولابد أن أغريه بالزواج من ابنتى واقترض منه الأربعين ألفاً التى أحتاج إليها .

ولكن الرجل الذى فى السلطة التقى به ، وفى نفس اللحظة قالت له غريزته إن هذا الرجل يمكن الاستفادة منه ، فصادقه الأمير فاسيلى .

وفى أول فرصة – وبوحى من غريزته وبدون تدبير سابق – نافقه وصار صاحبه الحميم ، وأخبره بمـا يريد .

وبيير كان حاضراً وتحت يده فى موسكو ، وقـد حصـل له الأمير فاسيلى على منصب شرفى فى القصر ، يضارع فى ذلك الوقت رتبة مستشار الدولة ، وأصر على سفر الشاب معه إلى بطرسبرج ، والإقامة لديه فى داره . وبدون تدبير ظاهر ، ولكن عن ثقة تامة بأن هذا هو الصواب ، رتب الأمير فاسيلى كل ما من شأنه أن ينتهى بزواج بيير من ابنته . ولو كان الأمير فاسيلى فكر سالفاً فى ذلك لمـا جاءت تصرفاته طبيعية هكذا مع الجميع ، سواء من هم أرقى منه أو أدنى منزلة . فثمة شىء غامض يجذبه دائماً نحو من هم أغنى وأقوى منه ، وكانت غريزته لا تخطئ فى اختيار اللحظة التى يستغل فيها صلاته بهؤلاء الناس .

وكان بيير – بعد أن أصبح على غير انتظار شديد الثراء، وصار اسمه الكونت بيزوهوف Beguhov – قد ألفى نفسه بعد الوحدة والإهمال محط الأنظار ، ومحاطاً بالناس ، وكثير الشواغل ، بحيث لم يعد يخلو بنفسه إلا فى فراشه . فقد كان عليه أن يوقع أوراقاً ، وأن يتقدم إلى الهيئات القانونية والقضائية فى أمور لم يكن يدرك لهـا معنى محدداً . وأن يستفسر عن أمور من وكيل دائرته ، وأن يزور ضيعته القريبة من موسكو . وأن يستقبل عـــدداً كبيراً من الناس الذين لم يكونوا من قبل يشعرون بوجوده . ولكنهم الآن يستاءون جـداً

إن لم يتكرم باستقبالهم ! وكل هؤلاء الناس من شتى الأنواع ، بين رجال أعمال ، وأقارب ، ومعارف ، وكلهم بشاشة ورقة فى تعاملهم مع الوارث الجديد الشاب ! وكانوا كلهم قد اقتنعوا فجأة بسجاياه النادرة ، فكان يسمع منهم باستمرار عبارات مثل :

— بما فطرت عليه من قلب كبير ورقة وذكاء خارق يا كونت !...

حتى بدأ يصدق فعلا أن له كل هذه الصفات الحميدة النبيلة ، عقلية كانت أو خلقية ، بل إن من كانوا من قبل يظهرون له الازدراء صاروا يذوبون رقة ودماثة وتقديراً . والأميرة الكبرى الحادة الطبع والخصر الطويل ذهبت إلى حجرة بيير بعد الجنازة وأسبلت عينيها واحمر وجهها حتى حاكى لونه الأرجوان وقالت له : إنها آسفة جداً لسوء التفاهم الذى نشب بينهما سابقاً ، وأنها تشعر الآن بأنه ليس من حقها أن تطلب منه شيئاً ، اللهم إلا الإذن — بعد المصيبة التى حلت بها — أن تبقى أسابيع قليلة فى البيت الذى تربت فيه ، وتعلقت به ، وتحملت فيه تضحيات كثيرة . ولم تستطع عندئذ أن تمالك نفسها فبكت . وتأثر بيير عندما رأى هذه الأميرة التى كانت جامدة كأنها تمثال تذرف الدمع ، فتناول يدها وطلب منها أن تغفر له ، وإن لم يدر ماذا يمكن أن تغفره له . ومنذ ذلك اليوم شرعت الأميرة تحبك لفاعاً من الصوف لبيير ، وتغيرت معه تغيراً تاماً .

وقال له الأمير فاسيلى وهو يقدم إليه وثيقة كى يوقعها لمصلحة الأميرة :

— اصنع هذا من أجل خاطرى يا فتاى العزيز ، فقد تحملت الكثير من أجل المرحوم على كل حال .

وقد اعتقد أن هذه الحوالة بمبلغ ثلاثين ألفاً كانت رشوة تستحقها هذه الأميرة لكى لا يخطر لها أن تثرثر عن دور الأمير فاسيلى فى مسألة الحافظة المطعمة . ووقع بيير الوثيقة ، ومنذ هذا اليوم صارت الأميرة أشد دماثة ومودة من ذى قبل . وصارت شقيقتاها الصغيرتان ودودتين أيضاً ، ولاسيما أصغرهما ، وهى الفتاة الجميلة ذات الخال التى كثيراً ما أربكت بيير بابتساماتها عندما كانت تراه .

أما بيير فبدا له أن من الطبيعى جداً أن يغرم به كل إنسان ، وكان خليقاً أن يرى من غير الطبيعى أن يبغضه أحد . ولذا من لم يكن من العسير عليه أن يؤمن بإخلاص المحيطين به . ثم إنه لم يكن لديه وقت ليفكر فى إخلاصهم أو عدم إخلاصهم . فلم يكن لديه أى وقت فراغ ، فكأنه من كثرة الشواغل فى حالة سكر مستمر . وشعر بأنه كمن يشغل منصباً هاماً ، فهناك دائماً أشياء كثيرة منتظرة منه . وكان يقوم بكل ما ينتظر منه بلا تردد .

وفى تلك الأيام الأولى ، كان الأمير فاسيلى أكثر الجميع انشغالا بأمور بيير، وعناية ببيير نفسه . ومنذ وفاة الكونت بيزوهوف

لم يترك بيير يفلت من يده . ومع أن الأمير فاسيلى كان يبدو دائماً مثقلا بالأعباء ، إلا أنه بدافع من الود والعطف لم يسعه أن يتخلى عن هذا الصبى الذى لا حيلة له ، وهو بعد كل شىء ابن صديقه العزيز ، وهو فى الوقت نفسه وارث ثروة ضخمة ، فلا يليق أن يتركه لمصيدة فيقع فريسة سهلة فى يد المغامرين والأوغاد . ففى الأيام القلائل التى بقيها فى موسكو بعد وفاة الكونت بيزوهوف ، دعا بيير إليه ، وربما ذهب هو إليه ، وأملى عليه ما يجب أن يصنعه فى لهجة الرجل المجهد بالعمل ، وكأنه يقول له بلسان الحال :

— أنت تعلم كم أنا مرهق بالعمل ، ولكنى من قبيل الشفقة عليك أشغل نفسى بأمورك ، ثم إن ما أقترحه عليك هو الطريق الأمثل .

وذات يوم قال له وقد أغلق عينيه ، وراح ينقر بأصابعه على كوعه ، وبلهجة توحى بأن هذه المسألة قد سويت بينهما منذ زمن ولا يمكن أن يكون الأمر إلا على هذه الصورة :

— حسناً يا فتاى العزيز . غداً نسافر أخيراً ... وستركب معى فى عربتى . وأنا سعيد جداً . فقد انتهت كل أعمالنا الهامة هنا، وكان ينبغى أن أعود منذ وقت طويل . وقد وصلتنى هذه الرسالة من رئيس الوزراء . فقد كنت رجوته لأجلك ، وقد عينك فى السلك السياسى ، كما عينك فى منصب شرف بالقصر . فها قد صار العمل الدبلوماسى مفتوحاً أمامك .

وبرغم الذى تركته فيه لهجة الإعياء والثقة التى قيلت بها هذه الكلمات ، إلا أن بيير الذى كان قد فكر طويلا فى مستقبله حاول أن يحتج ، ولكن الأمير فاسيلى قطع عليه احتجاجه فى نبرات جهيرة حالت دون كل فرصة لإيقاف تدفق كلماته ، وكانت هذه هى الوسيلة التى يلجأ إليها عندما يفتقر إلى وسيلة للإقناع ، قال :

— ولكنى يا فتاى العزيز صنعت هذا رعاية لضميرى ولا داعى مطلقاً لشكرى عليه . فلا أحد شكا من قبل لأنه محبوب أكثر مما ينبغى ثم أنت حر تماماً ، ففى وسعك التخلى غداً عن كل شىء . وسترى بنفسك فى بطرسبرج مجرى الأمور . وقد آن الأوان لكى تغادر كل هذه الصحبة الرهيبة هنا . فكل شىء قد تقرر وانتهى الأمر يا فتاى العزيز . واسمح لخادمى الخاص أن يسافر فى عربتك لأنك ستسافر فى عربتى . آه ! لقد كدت أنسى ! أنت تعلم يا فتاى العزيز أنه كان هناك حساب صغير ينبغى تسويته مع والدك . ولما كنت قد تلقيت شيئاً ما من ضيعة ريازان Ryazan فسوف أحتفظ به ، فلست فى حاجة إليه وسوف نسوى الحسابات فيما بعد .

وما سماه الأمير فاسيلى « شيئاً من ضيعة ريازان » كان عدة آلاف من الروبلات دفعت بدلا من خدمات من جانب بعض الفلاحين ، وقد احتفظ بهذا المبلغ لنفسه .

وفى بطرسبرج كان بيير محاطاً بنفس الجو من الإعزاز والحنان كما كان الحال فى موسكو . ولم يستطع رفض المنصب ولا اللقب

الذى حصل له الأمير فاسيلى عليه ، وكانت الدعوات من المعارف والواجبات الاجتماعية كثيرة جداً ، بحيث كان بيير هنا أكثر شعوراً مما كان فى موسكو بالذهول ، والعجلة وتوقع مستقبل حسن ولكن هذا المستقبل لا يتحقق أبداً .

ولم يكن قد بقى من مجموعة أصحابه العزاب فى بطرسبرج الكثيرون . فضباط الحرس ذهبوا للخدمة العاملة فى الجيش ، ودولوهوف أنزلت رتبته إلى « نفر » ، وأناتول ذهب إلى الجيش وكان فى مكان ما من الريف . والأمير أندريه فى الخارج ، ولذا لم تتح لبيير الفرصة لقضاء لياليه على النحو الذى كان يحبه من قبل، ولا تسنى له أن يفتح قلبه لصديقه الأكبر منه سناً والذى كان يحترمه فصار يقضى وقته كله فى حفلات عشاء ورقص ، أو فى بيت الأمير فاسيلى فى صحبة زوجته الأميرة البدينة ، وابنته الحسناء إلين .

ومثل أى شخص آخر ، بينت أنا بفلوفنا شيرر لبيير التغير الذى طرأ على موقف المجتمع منه . ففى الأيام السالفة كان بيير يشعر على الدوام بأن ما يقوله غير مناسب وخال من اللياقة ، وأن العبارات التى أعدها فى ذهنه وكانت تبدو له بارعة تخرج من فمه سمجة أو غبية متى تفوه بها بصوت عال ، وأن « إيبوليت » على عكسه تماماً ، فكل ما يقوله من التوافه كان يقع موقعاً حسناً لدى السامعين ويبدو آية فى الحكمة والظرف . أما الآن فكل ما يقوله « بديع » و « رائع ». وحتى إن لم تقل أنا بفلوفنا ذلك ، إلا أنه كان يرى على محياها

بوضوح أنها تتوق إلى قوله ، وأنه لا يمنعها من إطرائه إلا خوفها من إخجال تواضعه !

وفى بداية الشتاء ، فى سنة ١٨٠٥ تسلم بيير بطاقة دعوة وردية من أنا بفلوفنا وقرأ فيها قولها :

– ستجد الحسناء إلين فى بيتى . وهى من لا يمل المرء رؤيتها أبداً ...

وعندما قرأ هذه العبارة أحس برباط يربطه بإلين من نوع ما يعترف به سائر الناس ، ولأول وهلة أزعجته هذه الفكرة، كأنما ألقى عليه التزام لا يستطيع أداءه ، ولكن الفكرة سرته فى الوقت نفسه وأمتعته .

وكانت سهرة أنا بفلوفنا هذه المرة شبيهة بالسهرة الأولى، ولكن الشخصية التى قدمتها هذه المرة لضيوفها لم تكن مورتيمار ، بل كانت دبلوسياً وصل لتوه من برلين ، ومعه آخر تفصيلات إقامة الإمبراطور إسكندر فى بوتسدام Potsdam ، وعن التحالف الأبدى الذى عقده الصديقان الحميمان وأقسما عليه بأن يصونا القضية الحقيقية ضد عدو النوع البشرى . ورحبت أنا بفلوفنا ببيير فى شىء من الأسى وأشارت إشارة خفيفة إلى فقدان الشاب لوالده الكونت بيزوهوف (وكان الكل مصرين على أن بيير يشعر بفداحة فقد والده الذى لم يكد يعرفه) . وكان أساها من نفس نوع أساها كلما ذكرت صاحبة الجلالة المبجلة الإمبراطورة ماريا فيدوروفنا (الإمبراطورة

الوالدة) . وشعر بيير بالزهو لذلك . وكانت أنا بفلوفنا قد رتبت المجموعات فى قاعة استقبالها ببراعتها المعتادة . فالمجموعة الكبرى التى كانت تضم الأمير فاسيلى وطائفة من الجنرالات كان يتوسطها الدبلوماسى . واجتمعت حلقة أخرى حول مائدة الشاى . وكان بيير يود لو انضم للمجموعة الأولى ، ولكن أنا بفلوفنا التى كانت مشغولة بجنرال فى ساحة القتال منعت بيير ، ووضعت إصبعها على كمه قائلة له :

— انتظر . فقد أعددت لك ترتيباً خاصاً هذه الليلة .

والتفتت إلى إلين وابتسمت لها وقالت :

— عزيزتى إلين ، يجب أن تظهرى الاهتمام والرحمة لعمتى المسكينة التى تحبك حب العبادة — اذهبى وآنسيها عشر دقائق . ولكى لا تشعرى بالملل ، ها هو الكونت العزيز الذى لن يمانع طبعاً فى مرافقتك وصحبتك .

وتحركت الحسناء صوب العمة العجوز ، ولكن أنا بفلوفنا استبقت بيير بجوارها ، لأنها تريد أن تعد له ترتيباً خاصاً . وأشارت له بيدها إلى الحسناء التى تخطر كالملكة مبتعدة عنهما إلى حيث العمة ، وقالت له :

— إنها رائعة ! أليست كذلك ؟ انظر كيف تخطر بقدها البديع ! ثم أى كياسة وظرف تتمتع بهما هذه البنية الصغيرة ! إن مصدر هذا التهذيب الفطرى هو القلب . وسعيد هو الرجل الذى يفوز بها .

وسيحتل بفضلها مكاناً مرموقاً فى المجتمع حتى ولو كان رجلا تافهاً جلفاً . هذا صحيح . أليس كذلك ؟ أردت فقط أن أعرف رأيك .

ثم تركت بيير يذهب فى أثرها .

وكان بيير مخلصاً جداً فى موافقته على كل ما قالته عن كمال محاسن إلين وصفاتها الحميدة . ولو كان قد فكر فى إلين ، فمن جهة جمالها الرائع ، أو لالتزامها صمتها التام الهادئ الرصين فى المجتمع .

واستقبلته العمة العجوز الشابين فى ركنها، ولكنها بدت متلهفة على إخفاء عبادتها لإلين ، ونظرت إلى ابنة أخيها كأنما تسألها ماذا تصنع بهذين . فوضعت أنا بافلوفنا إصبعها مرة أخرى على كم سترة بيير وقالت :

— أتمنى ألا تقول فى المستقبل إن الناس يشعرون بالملل فى بيتى .

ونظرت إلى إلين ، فابتسمت إلين ابتسامة من تريد أن تقول إنها لا تتصور أن يراها أحد من غير أن يشعر بالسرور أو الافتتان . وسعلت العمة ، وابتلعت البلغم وقالت بالفرنسية : إنها سعيدة جداً برؤية إلين ، ثم وجهت نفس هذه التحية إلى بيير بنفس السحنة . وفى أثناء حديث ممل ومتعثر نظرت إلين إلى بيير وابتسمت له ابتسامتها المشرقة التى توجهها إلى كل إنسان . وكان بيير قد تعود جداً على هذه الابتسامة فلم يكد يلقى إليها بالا . وكانت العمة عندئذ تتحدث عن مجموعة علب السعوط (النشوق) التى يمتلكها والد



وكان بيير قد تعـود جدا على هذه الابتسامة فلم يكد يلقى إليها بالاً ..

بيير ، الكونت بيزوهوف ، وأرتهما علبة سعوطها . وطلبت إلين أن تنظر إلى صورة زوج العمة التى كانت على العلبة .

وقال بيير عندئذ :

– أظنها من رسم « فاينز » Vines

مشيراً إلى رسام شهير للصور الصغيرة ، وانحنى على المنضدة ليأخذ علبة السعوط ، وهو يصغى طيلة الوقت لحديث الذى كان يدور بين أعضاء المجموعة الكبرى . ونهض لكى يذهب إلى هناك ، ولكن العمة ناولته علبة السعوط ، مارة بها عـبر إلين ، من وراء ظهرها . وانحنت إلين لكى تفسح المجال ، ونظرت خلفها باسمة . وكانت ترتدى ما ترتديه دائماً فى المساء ثوباً مفصلا على آخر طراز ، شديد الاستدارة حول العنق من الأمام ومن الخلف . وهكذا صار نصفها العلوى الذى كان يبدو دائماً لبيير كالمرمر ، قريباً جداً من نظره القصـير بحيث استطاع أن يتبين كل الفتنة الحية المنبعثة من جيدها وكتفيها . وكان هذا كله قريباً جداً من شفتيه بحيث يكفى أن ينحنى قليلا ليلثمه . وأحس دفء بدنها ، وفوح عطرها ، وسمع خشخشة المشد وهى تتحرك . لم ير جمالها المرمرى هو وثوبها قطعة واحدة ، بل رأى كل تفصيلات جسمها كأنها عارية تماماً وإن كانت تسترها غلالة من الثياب . وما إن قيض له أن يلمح جسـدها على هذه الصورة ، حتى استحال عليه بعد ذلك أن يراه إلا على هذا

النحو ، تماماً كما يستحيل علينا أن نعود إلى الاعتقاد فى وهم بعد أن تم تفسيره لنا .

وكأنما كانت عينا إلين تقولان له :

— أنت إذن لم تر قبل الآن كم أنا جميلة وجذابة ؟ ألم تلاحظ من قبل أننى امرأة ؟ نعم أنا امرأة ، ويمكن أن يحوزنى وينالنى أى أحد ... وأنت أيضاً تستطيع أن تنالنى !

وفى هذه اللحظة شعر بيير أن إلين يمكن أن تكون امرأته فقط بل لابد أن تغدو زوجته ! وقد أيقن بهذا كما لو كان واقفاً بجوارها تحت تاج القران . ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ومتى ؟ لم يكن يدرى ! بل ولم يكن يدرى أيكون هذا شيئاً حسناً (فقد خامره إحساس مجهول المصدر بأنه لن يكون كذلك) ولكنه أيقن أن هذا ما سيكون حتماً .

وأسبل بيير عينيه ، ثم حاول مرة أخرى أن يراها حسناء بعيدة عن مناله ، كما كان يراها من قبل ، ولكنه عجز عن هذا . عجز عن هذا تماماً مثل شخص كان ينظر وسط الضباب إلى عود عشب طويل فى السهوب ويحسبه شجرة ، حتى إذا انجاب الضباب ورأى أنه عود عشب ، لم يعد فى مقدوره أن يراه بعد ذلك شجرة أبداً . وها هى الآن قريبة منه جداً ، وقد صار لها بالفعل تأثير قوى عليه ، ولم تعد بينه وبينها حواجز من أى نوع ، اللهم إلا حاجز إرادته .

وقال له صوت أنا بفلوفنا عن بعد :

— عظيم جداً . سأتركك إذن فى ركنك الصغير هذا ، فإنى أراك مستريحاً فيه جداً .

وحاول بيير أن ينظر فيما حوله ، وقد احمر وجهه حتى صار بلون القرمز ، لأنه خشى أن يكون بدر منه ما يلام عليه ، أو أن يكون أحد لاحظ ما يدور فى ذهنه . وعندما توجه بعد قليل إلى المجموعة الكبرى ، قالت له أنا بفلوفنا :

— سمعت أنك تجرى تحسينات فى بيتك ببطرسبرج .

وكان هذا صحيحاً ، فقد قال له المهندس المعمارى : إن هذا ضرورى ، من غير أن يدرى بيير ما الغرض من إعادة زخرفة بيته فى بطرسبرج . واستطردت أنا بفلوفنا :

— هذا شىء حسن جداً ، ولكن لا تغادر بيت الأمير فاسيلى ، فشىء جميل جداً أن يكون لك صديق من طراز الأمير (وابتسمت صوب الأمير فاسيلى) فأنا أعرف جيداً هذه الأمور ، وأنت حديث السن جداً ، وبحاجة إلى النصيحة . ولا تغضب منى لأنى أستخدم معك حقوق وامتيازات امرأة متقدمة فى العمر .

وسكتت أنا بفلوفنا لحظة ، كما تسكت النساء دائماً متوقعات كلمة مجاملة بعد أن يقلن شيئاً عن تقدمهن فى السن .. ولكن بيير لم يقل شيئاً ، فاستطردت .

— أما إن تزوجت ، فهذا وضع آخر .

وشملته هو وإلين بابتسامة واحدة . ولم ينظر بيير نحو إلين ، ولا نظرت إلين إليه ، ولكنها كانت لم تزل شديدة الدنو منه . فغمغم بيير ، واحمر وجهه .

وبعد أن عاد بيير إلى البيت ، لم يواته النوم إلا بعد فترة طويلة . وظل يفكر فيما يحدث له . فما الذى يحدث ؟ لا شىء ! الأمر ببساطة أن هناك امرأة عرفها منذ الطفولة — بحكم القرابة — وكان يقول كلما قيل له : إنها جميلة ، إنها حسنة الشكل ، من غير أن يعير هذا الأمر اهتماماً خاصاً ، ولكنه الليلة أدرك أن هذه المرأة يمكن أن تكون له . ثم قال لنفسه :

— ولكنها غبية ! وهناك شىء قذر فى الإحساس الذى توحى به إلىّ وتثيره فىّ . شىء غير مستساغ ، وغير مشروع . وقد قيل لى : إن أخاها أناتول عاشق لها ، وهى عاشقة له ، كانت هناك فضيحة ، ولذا أبعد أناتول . ثم إن أخاها هو أيبوليت ... ووالدها الأمير فاسيلى ... وهذا شىء سيىء !

وفى اللحظة التى خامرته فيها هذه الأفكار ، ضبط نفسه يبتسم ، فقد طغت عليها خواطر من نوع آخر ، فقد تصور أنها رغم تفاهتها يمكن أن تصير زوجته ، ويمكن أن تحبه ، ويمكن أن تتغير تماماً . وأن كل ما كان سمعه عنها إنما هى أقاويل يمكن أن تكون غير صحيحة . ومرة أخرى رآها لا على أنها ابنة الأمير فاسيلى ، بل رأى جسدها كله ، لا تستره إلا غلالة ثوبها الرمادى . وتساءل :

— ولكن لماذا لم تخطر لى هذه الفكرة من قبل ؟

ووجد نفسه يقول : إن هذا مستحيل ، وإن شيئاً قذراً وغير طبيعى ، بل وغير مشرف فى هذا الزواج ، كما خطر له هذا من قبل . واستعاد كلماتها الماضية ونظراتها ، وكلمات الناس ونظراتهم عندما رأوهما معاً . وتذكر كلمات ونظرات أنا بفلوفنا عندما تكلمت عن بيته ، واستعاد ألوف التلميحات من هذا القبيل من جانب الأمير فاسيلى وغيره من الناس ، واستولى عليه الفزع من الارتباط بشىء واضح الخطأ ، لا يليق به أن يقدم عليه ، ولكن فى نفس الوقت الذى كان يقول فيه هذا الكلام لنفسه ، كانت صورتها طافية فى جانب آخر من عقله بكل جمالها وفتنتها الأنثوية .

* * *

- ٢ -

وفى شهر نوفبر سنة ١٨٠٥ اضطر الأمير فاسيلى للسفر فى جولة تفتيشية فى أربع مقاطعات . وكان قد أعد لنفسه هذه المهمة ، لكى ينفسح أمامه المجال فى الوقت نفسه لزيارة ضياعه التى كانت فى حالة زرية بسبب الإهمال . وعزم على أن يلتقى بابنه أناتول فى الطريق (حيث يعسكر آلايه) ويأخذه لزيارة الأمير أندريه أندريفتش بلكونسكى ، وفى نيته أن يزوج ابنه لابنة الرجل الثرى المسن . ولكنه قبل أن يسافر ويشغل بهذه الأمور أراد أن يسوى الأمور مع بيير ، الذى كان فى الفترة الأخيرة من عادته — والحق يقال — أن يقضى فى البيت أياماً بطولها ، أى فى بيت الأمير فاسيلى حيث كان يقيم ، وكان بادى الاضطراب والبلاهة فى حضور إلين ، على النحو المألوف فى شاب عاشق ، إلا أنه لم يتقدم لطلبها .

وقال الأمير فاسيلى لنفسه ذات صباح وهو يتنهد بأسى :

— كل هذا حسن ، ولكن لابد من حسم الأمور .

ذلك أنه لاحظ أن بيير (الذى كان مديناً لأفضاله بالكثير) لم يكن تصرفه معه كما يتوقع فى هذا الشأن . وهز كتفيه متحسراً :

— نزق الشباب ... كان الله فى عونه ! ولكن لابد من وضع الأمور فى نصابها الصحيح . إن بعد غد هو عيد ميلاد إلين . وسوف

أدعو بعض الناس ، وإذا كان لا يفهم ما يجب عليه فعله ، فمن شأنى أنا أن أجعله يفهمه ! نعم هذا شأنى ، فأنا أبوها !

* * *

وبعد مرور ستة أسابيع على حفلة أنا بفلوفنا ، وعلى الليلة التى قضاها أرقاً فى أعقابها ، والتى كان قد استقر رأيه فيها على أن زواجه من إلين سيكون كارثة ، ومن ثم عليه أن يتحاشاها ويرحل ولكن بعد مرور ستة أسابيع على هذا القرار لم يكن بيير قد غادر بيت الأمير فاسيلى ، بل وشعر بأن كل يوم يمضى عليه يزيده ارتباطاً بها فى أذهان الناس ، وأنه لم يعد بمقدوره أن يعود إلى سالف نظرته إليها ، ولا فى استطاعته أن ينتزع نفسه منها حتى ولو كان ارتباطه بها أمراً شائناً ، بل صار يشعر أيضاً بحتمية ارتباطه بها . ولعله كان ينبغى أن يسيطر على نفسه ، ولكن ماذا يفعل ، وما من يوم ينقضى من غير حفلة تقام فى بيت الأمير فاسيلى (مع أن الاستقبالات قبل هذا لم تكن كثيرة) وكان بيير يجد نفسه مضطراً للحضور حتى لايجرح شعور أى أحد . وفى المرات النادرة التى كان الأمير فاسيلى يوجد فيها بالبيت ، كان يتناول يد بيير إذا ما مر به ، ويقدم له وجهه الحليق كى يقبله ، وهو يقول له :

— إلى أن نلتقى غداً .

أو

— كن معنا على العشاء ، وإلا فاتنى أن أراك .

أو

— سأبقى اليوم بالبيت من أجلك .

أو أى عبارة لطيفة أخرى من هذا القبيل . ومع هذا عندما كان الأمير يبقى بالبيت لم يكن يقول لبيير كلمة واحدة تقريباً . ولكن بيير كان يبقى أيضاً حتى لا يخيب رجاؤه ، وكان فى كل يوم يقول لنفسه عين العبارة :

— يجب أن أفهمها ، وأعرف ما هى بالضبط . وهل كنت مخطئاً فى رأيى فيها سابقاً ، أم أنا مخطئ الآن ؟ كلا ! إنها ليست غبية . إنها فتاة طيبة .

وكان أحياناً يقول لنفسه :

— إنها لا ترتكب أبداً أى غلطة . ولم تقل أى شىء يدل على غباء . وهى قلما تتكلم ، ولكنها عندما تتكلم تقول دائماً شيئاً يتسم بالبساطة والوضوح . كلا ! إنها ليست غبية . ولم ترتبك قط . إذن هى ليست امرأة سيئة .

وكثيراً ما كان يفكر ويراجع نفسه ، أو يفكر بصوت مسموع فى حضورها ، وفى كل مرة كانت إما أن تجيب إجابة ملائمة موجزة تدل على أنها غير مهتمة بالموضوع ، أو تجيب بابتسامة صامتة ونظرة تدلان أكثر من أى كلام على رقيها . وكانت على حق فى اعتبار كل الأقوال تافهة بالقياس إلى هذه الابتسامة !

وصارت تخاطبه الآن وهى مفترة عن ابتسامة سعيدة توحى

بالثقة به ، ابتسامة تخصه بها من دون الناس ، وتفيض بشىء أكثر مما تنطوى عليه ابتسامتها الاجتماعية المألوفة التى كانت دائماً تزين محياها الجميل . وكان بيير يعلم أن الجميع ينتظرون منه كلمة واحدة وأن يتجاوز خطاً معيناً ، وكان يعلم أنه حتماً سيخطو هذه الخطوة . إلا أن نوعاً من الذعر أو الرعب غير المفهوم كان يستولى عليه لمجرد التفكير فى هذه الخطوة . وألف مرة فى غضون هذه الأسابيع الستة التى شعر فيه بأنه منجذب إلى هذه الهاوية التى تروعه . قال بيير لنفسه :

— ولكن ما معنى هذا ؟ لابد أن أتصرف بحزم ! أمن الممكن أن أكون بلا عزيمة إطلاقاً ؟

وحاول الوصول إلى قرار ، ولكنه أحس — فى فزع — إنه فى هذا الموضوع خال تماماً من قوة الإرادة التى كان يعهدها فى نفسه وكان فى الحقيقة مالكاً لها . فبيير كان ينتمى إلى تلك الفئة من الناس الذين لا يكونون أقوياء إلا عندما يشعرون بأنهم أطهار تماماً . ومنذ ذلك اليوم الذى غلبه على أمره إحساسه بالاشتهاء ، وهو منحن على علبة سعوط عمة أنا بفلوفنا ، وإحساس لا شعورى بالذنب لهذه الشهوة يشل إرادته تماماً .

* * *

وكان الأمير فاسيلى قد أعد لعيد ميلاد ابنته الحسناء إلين حفلة عشاء صغيرة ، تضم مع أهل البيت — كما قالت زوجته — الأصدقاء والأقارب . وقد أشعر هؤلاء الأصدقاء والأقارب بأن لهذا اليوم

أهميته الخاصة فى حياة الأميرة الصغيرة . وجلس الضيوف إلى مائدة العشاء . وكانت أم إلين ، الأميرة كوراجين امرأة بدينة مهيبة المنظر كانت فى يوم من الأيام جميلة ، جالسة فى مقعد ربة الدار ، ويحف بها على جانبيها أعلى الضيوف مقاماً : جنرال مسن وزوجته ، وأنا بفلوفنا شيرر . وقرب ذيل المائدة جلس الضيوف الأحدث سناً والأدنى مقاماً ، وهناك أيضاً جلس — بوصفهما من أعضاء الأسرة — بيير وبجواره إلين . أما الأمير فاسيلى فلم يتناول العشاء . بل كان يروح ويغدو حول المائدة ، فى بشاشة وانشراح واضحين ، ويجلس تارة بجوار هذا الضيف ، وتارة أخرى بجوار ذاك ، ويلقى إلى كل واحد كلمة ملاطفة ، فيما عدا بيير وإلين اللذين كأنه لا يحس وجودهما . وهكذا كان الأمير فاسيلى ينعش الجلسة كلها . وكانت الشموع مضاءة بكثرة ، وينعكس نورها على البلور والفضيات ، وعلى حلى السيدات ، وعلى زينة أكتاف الرجال من الذهب والقصب . والخدم يشقون طريقهم فى ستراتهم الحمراء . وأصوات الشوك والسكاكين تختلط بأصوات الأحاديث المتناثرة حول المائدة والنوادر والملح التى تعقبها الضحكات . وفى الوسط كان الأمير فاسيلى يركز الانتباه على نفسه . وبابتسامة شائعة فى ملامحه راح يروى للسيدات جلسة يوم الأربعاء الماضى فى المجلس الخاص ، التى تلقى فيها سيرجى كوزمتش فيازمتينوف Sergey Kugmitch Vyazmitinov — وهو الحاكم العسكرى الجديد لبطرسبرج — وتلا

مرسوماً صادراً إليه من الإمبراطور ألكسندر بفلوفتش Pavlovitch كثر الحديث عنه أخيراً . فقد كتب الإمبراطور من الجيش إلى سيرجى كوزمتش هذا أنه يتلقى من جميع الأنحاء آيات الولاء من شعبه ، وأن مشاعر أهل بطرسبرج بصفة خاصة سرته كثيراً ، وأنه فخور بشرف أن يكون على رأس مثل هذا الشعب ، وسيبذل قصارى جهده أن يكون جديراً بهذا . وما كاد الحاكم العسكرى يتلو العبارة الافتتاحية حتى غلبه التأثر ، ولم يستطع إتمام الرسالة لتدفق الدموع من عينيه !

وضحكت السيدات ، وقال الأمير :

— وكرر المحاولة ، وفى كل مرة تخنقه العبرات . وأخيراً كلف المجلس عضواً آخر بتلاوة الرسالة . وضحك الجميع مرة أخرى ، وضحكت أيضاً أنا بفلوفنا ، ولكنها هزت للأمير فاسيلى سبابتها وقالت :

— كفى شيطنة ! إن فيازمتينوف رجل فاضل وممتاز ...

وضحك الجميع ثانية عند أعلى المائدة ، وساد المرح الضيوف فيما عدا بيير وإلين اللذين جلسا صامتين جنباً إلى جنب فى نهاية المائدة ولكن وجهيهما كانا يشعان بابتسامة مرتبكة ، لا علاقة لها بفيازمتينوف بل بأحاسيسهما الخاصة . وكان الآخرون فى مرحهم ومناقشاتهم وتعليقهم بالثناء على الخمر الجيدة والطعام والمثلجات ، يتحاشون النظر إليهما . ولكن من اللمحات المختلسة بين الحين والحين كان واضحاً أن

الضحك على فيازمتينوف كان مجرد ذريعة متكلفة، وأن كل الانتباه فى هذه الحفلة كان مركزاً طول الوقت ببساطة على هذين الشابين : بيير وإلين .

وراح الأمير فاسيلى يقلد نشيج سيرجى كوزمتش ، وهو يتحاشى فى الوقت نفسه النظر إلى ابنته . ولكن فى كل مرة كان يضحك فيها كأنما كان يقول :

– نعم . نعم . كل شىء على ما يرام . وسوف يحسم هذا الأمر اليوم !

ولوّحت له أنا بفلوفنا بسبابتها متوعدة فى هزل ، لأنه يسخر من « العزيز كوزمتش » ، ولكن عينيها ومضتا بنظرة صوب بيير ، ثم قرأ الأمير على ملامحها تهنئة صامتة على سعادة ابنته وزوج ابنته المستقبل . وقدمت الأميرة كوراجين النبيذ إلى جارتها وهى تصعد زفرة أسى كأنما تقول :

– لنشرب يا عزيزتى ، فلم يعد باقياً لأمثالنا إلا عزاء الشراب ، ما دام هذان الشابان سوف يغترفان من السعادة بلا حياء !

ورمقت ابنتها بنظرة لا تخلو من غضب يشوبه الحسد . أما الدبلوماسى فقال فى نفسه وهو ينظر ناحيتهما ويرى وجهيهما السعيدين :

– وما هذا الهذر الذى أخوض فيه أنا . إن هذه لهى السعادة الحقيقية !

وفى غمار كل هذه التفاهات والنوادر والأحاديث التى ربطت بين الحاضرين برباط مشترك ، برز هذا الشعور المشترك الفريد بين الشابين ، فسيطر على كل شىء ، وطغى على كل الثرثرة الاجتماعية التى يمليها العرف ، فأحس الجميع أن هذا المرح المفتعل لا روح فيه ، بل إن هذا الإحساس سرى من الضيوف فشمل الخدم والسقاة أيضاً حتى كادوا ينسون واجباتهم ، وراحوا يختلسون النظرات إلى وجه إلين البهى ووجه بيير العريض الأحمر المرتبك . بل إن ضوء الشموع نفسه كاد يتركز أيضاً عليهما أكثر ممن عداهما ، ويبرز وجهيهما السعيدين .

وشعر بيير بأنه محور هذا كله ، وقد سره هذا الوضع وأربكه فى آن واحد ، فبدا منهمكاً وكالحالم ، بحيث لا يرى شيئاً بوضوح ولا يسمع شيئاً ، ولا يفقه مما حوله شيئاً . ولكن بين الحين والحين كانت انطباعات متقطعة عن الواقع تومض فى ذهنه . وقال فى نفسه وهو ينظر إلى كتفيها القريبتين منه :

– إذن قضى الأمر ! ولكن كيف حدث هذا كله ؟ وبهذه السرعة ؟ الآن أعرف أنه ليس من أجلى ، ولا من أجلها ، بل من أجل الجميع يجب أن يحدث هذا . فالكل يتوقعون هذا على هذا النحو . وكلهم مقتنعون بأنه ينبغى أن يتم . وأنا لا أستطيع ! أوه ! لا أستطيع أن أخيب أملهم ! ولكن كيف سيتم هذا ؟ أنا لا أعرف ولكنه سيتم ، سيتم حتماً !

ثم فجأة شعر بخزى غامض . شعر بارتباك لأنه الموضوع الأوحد للاهتمام العام ، ومركز الانتباه ، ولأنه رجل سعيد فى نظر الجميع ، وكيف أنه صار بوجهه القبيح وكأنه أشبه بباريس حين امتلك هيلانة (فى إلياذة هوميروس) . إلا أنه عزى نفسه قائلا :

— ولكن يبدو أن الأمر يتم هكذا دواماً ، ولابد أن يتم هكذا . ولكن ماذا صنعت أنا كى أستحق هذا ؟ ومتى بدأت هذه المسألة ؟ لقد جئت إلى هنا من موسكو مع الأمير فاسيلى ، وحينذاك لم يكن ثمة شىء . ثم بعد ذلك ما الذى كان يدعونى إلى عدم النزول عنده ؟ ثم لعبت معها الورق ، وكنت أقدم لها الخدمات الصغيرة المعتادة ، وذهبت للانزلاق معها على الجليد . فمتى إذن كانت البداية الحقيقية؟ متى ؟

وها هو الآن جالس بجوارها بصفته خطيبها ، يسمع ويرى ، ويحس قربها الشديد منه ، ويحس حركاتها وجمالها كله . ثم فجأة خيل إليه أنها ليست هى ، بل هو الجميل جمالا خارقاً ، ولذا كانوا كلهم ينظرون إليه ، ولسعادته بهذا الإعجاب العام مد قامته ، ورفع رأسه ، واستطاب سعادته . وعلى حين غرة سمع صوتاً مألوفاً يخاطبه للمرة الثانية ، ولكن بيير كان مستغرقاً بحيث لم يتبين ما قيل له .

وكرر الأمير فاسيلى قوله للمرة الثالثة :

— إنى أسألك متى كانت آخر مرة جاءتك رسائل من بلكوفسكى . كم أنت شارد الذهن يا فتاى العزيز هذه الليلة !

وابتسم الأمير فاسيلى ، ولاحظ بيير أن كل واحد كان يبتسم له ولإلين . وقال بيير فى نفسه :

— وماذا فى الأمر ما دمتم كلكم تعرفون . ماذا فى ذلك ؟ أليست هذه هى الحقيقة .

وابتسم ابتسامته الطفلية الدمثة ، وابتسمت إلين . وكرر الأمير فاسيلى سؤاله :

— متى كانت آخر مرة وصلتك فيها رسالة من أولمتز ؟

فقد كان يريد أن يعرف الجواب ليحسم مسألة مختلفاً عليها ، وقال بيير لنفسه :

— كيف يمكن أن يفكر الناس فى هذه التفاهات ؟

وبصوت مرتفع أجاب وهو يتنهد :

— نعم . من أولمتز ...

وأخذ بيير رفيقته وتبع الجميع من قاعة المائدة إلى قاعة الاستقبال . وبدأ المدعوون يستأذنون فى الانصراف ، وانصرف عدد منهم من غير أن يحيوا إلين ، كأنما لا يريدون أن ينتزعوها من مشغلة جادة . وعدد آخر منهم ذهبوا إليها لحظة ثم أسرعوا بالانسحاب رافضين أن تصحبهم إلى البهو . وغادر الدبلوماسى قاعة الاستقبال وهو فى حالة اكتئاب ذاهل ، وقد أحس تفاهة عمله الدبلوماسى بالقياس إلى سعادة بيير . وزمجر الجنرال المسن غاضباً عندما سألته زوجته كيف حال ساقه ، وقال لنفسه :

— يا للعجوز الحمقاء! فلتنظر إلى إلينا فاسيليفنا Vassilyeon ! إنها لا شك ستكون جميلة وهى فى الخمسين من عمرها !

وهمست أنا بفلوفنا فى أذن الأميرة كوراجين وهى تقبلها بحرارة :

— أعتقد أنه فى وسعى أن أهنئك ؟ ولولا ما بى من صداع لبقيت !

ولم ترد الأميرة ، لأنها كانت تتعذب حسداً لسعادة ابنتها !

وبينما كان الضيوف يستأذنون للانصراف ، ترك الجميع بيير وإلين وحدهما فى قاعة الاستقبال الصغرى حيث كانا جالسين . وكثيراً ما تركا وحدهما فى الأسابيع الستة الماضية ، ولكنه أبداً لم يحدثها عن الحب . أما الآن فأحس أن هذا لا مفر منه . إلا أنه لم يستطع أن يجمع عزمه كى يخطو هذه الخطوة النهائية . وشعر بالخجل ، وبأنه ها هنا بجوار إلين يشغل مكان رجل آخر . وناداه صوت من داخله :

— هذه السعادة ليست لك ! هذه السعادة لمن تخلو سريرتهم مما تشعر به فى داخلك !

ولكن كان لابد له أن يقول شيئاً ، وشرع يتكلم ، فسألها هل استمتعت بالسهرة ، وبطريقتها المباشرة الموجزة ؟ أجابته أن عيد ميلادها هذا كان من أسعد أعياد ميلادها .

وكان بعض الأقارب المقربين ما يزالون موجودين ، وكانوا جالسين فى قاعة الاستقبال الكبرى . وسار الأمير فاسيلى بخطوات متراخية صوب بيير ، فنهض بيير وقال : إن الوقت متأخر ، ورمقه الأمير فاسيلى بنظرة استفسار جادة ، كأنما ما قاله بيير كان شيئاً غريباً جداً ، فلا يكاد سامعه يصدق أذنيه . ولكن تعبير الصرامة لم يلبث أن تلاشى ، وتناول الأمير فاسيلى يد بيير واجتذبه فأجلسه فى مقعد وهو يبتسم بمودة .

وقال الأمير مخاطباً ابنته بذلك الحنان الذى يبديه بصورة طبيعية الآباء الذين عودوا أطفالهم التدليل منذ نعومة أظفارهم ، ولكن هذه النبرة على لسان الأمير فاسيلى كانت مجرد محاكاة لغيره من الآباء :

— كيف الحال يا إلين ؟

والتفت نحو بيير ، وفك الأزرار العليا من صداره . وابتسم بيير ولكن ابتسامته نمت على فهمه للموقف : وغمغم الأمير فاسيلى غمغمة غير مفهومة ثم انصرف . وخيل إلى بيير أن الأمير فاسيلى غير مستريح البال ، ويعانى من الحيرة . وتأثر بيير حين رأى رجل مجتمع لبق مثله مرتبكاً أو حائراً ، والتفت إلى إلين ، وخيل إليه أيضاً أنها غير مسرورة ، وكانت نظرتها تقول له :

— إنها غلطتك أنت !

وفكر بيير فى نفسه قائلا :

– لابد لى من اجتياز الحاجز . ولكنى لا أستطيع . لا أستطيع !

وبدأ يتكلم مرة أخرى فى موضوعات طفيلية ، فأثار حكاية سيرجى كوزمتش (حاكم بطرسبرج العسكرى) وسألها ماذا كان الهدف من هذه الحكاية لأنه لم يدركه . فأجابته إلين باسمة إنها هى أيضاً لا تعرف .

وعندما عاد الأمير فاسيلى إلى قاعة الاستقبال الكبرى ، كانت الأميرة زوجته تتحدث همساً مع سيدة عجوز عن بيير ، وقالت الأميرة :

– إنها طبعاً زيجة بديعة جداً ، ولكن السعادة يا عزيزتى ..

فقاطعتها السيدة العجوز قائلة :

– الزيجات تعقد فى السماء !

واتجه الأمير فاسيلى إلى أبعد ركن وجلس على أريكة ، كأنه لم يسمع السيدتين ، وأغمض عينيه وبدا عليه أنه أغفى . وبدأ رأسه يسقط على صدره ، فأيقظ نفسه وقال لزوجته :

– يا إلين Aline ! اذهبى وانظرى ماذا يصنعان .

وذهبت الأميرة إلى الباب ومشت بجواره وهى تتظاهر بعدم الاكتراث ، ثم نظرت إلى داخل حجرة الجلوس الصغرى . وكان بيير وإلين جالسين يتحدثان كذى قبل .

وقالت الأميرة لزوجها :

– الحال على ما كان عليه .

وقطب الأمير فاسيلى ، وزوى فمه إلى أحد الجانبين ، ارتجف خداه بتلك الحركة التى تنتابه فى مثل هذه الأوقات ، ونهض ، وقد مال برأسه إلى الوراء ، وبخطى ثابتة مر من أمام السيدتين وتوجه إلى حجرة الجلوس الصغرى . وسار بسرعة وابتهاج إلى بيير مباشرة ، فنهض بيير ، ولما قرأ علائم الجد على وجه الأمير تولاه الذعر . وقال الأمير :

– حمداً للرب ! لقد خبرتنى زوجتى بكل شىء .

ولف إحدى ذراعيه حول بيير ، ولف الأخرى حول إلين ، واستطرد :

– يا فتاى العزيز ! يا إلين !... كم أنا سعيد !

وارتجف صوته ، وأردف :

– أنا أحببت أباك .. وهى ستكون خير زوجة لك ... باركما الله !

وعانق ابنته وقبلها ، ثم عانق بيير وقبله ، وكانت الدموع تنحدر على خديه فعلا ، ثم نادى :

– إلين ! Aline تعالى هنا !

وجاءت الأميرة وبكت أيضاً .. ووضعت السيدة العجوز منديلها على عينيها . وقبلت بيير ، وهو أيضاً لثم يد إلين الجميلة عدة مرات . وبعد هنيهة تركوهما معاً وحدهما .

وقال بيير فى نفسه :

– فقد كان محتماً أن يحدث هذا ، ولم يكن منه مفر ، وليس له بديل ! لذا لا جدوى من السؤال أخير هو أم شر . إنه شيء حسن لأنه نهائى ، ولم يعد هناك على الأقل مجال لعذاب الأخذ والرد والتردد كذى قبل .

وتناول بيير يد خطيبته فى صمت ، وراح ينظر إلى ارتفاع صدرها الجميل وانخفاضه مع تنفسها ووجيب قلبها .

وقال بصوت عال :

– إلين !

ثم سكت ، وقال فى نفسه :

– هناك شيء من نوع خاص يقال فى هذه المناسبة .

ولكنه لم يستطع أن يتذكر ماذا عساه يكون ! ونظر إلى وجهها فمالت إلى الأمام واقتربت منه . واشتدت حمرة وجهها . ثم قالت له :

– انزع عنك هذه ... هذه ...

وأشارت إلى نظارته ، وكانت تطل من عينيه إلى جانب نظرة أصحاب النظارات حين ينزعونها نظرة أخرى تدل على الفزع والتساؤل . وتمنى لو أكب على يدها وقبلها ، وشرع ينحنى ، ولكنها بحركة عنيفة من رأسها أكبت على شفتيه وضغطت عليهما بشفتيها . وأذهل بيير تعبير محياها المتغير المتوتر فى تلك اللحظة .

وقال بيير فى نفسه :

– الآن فات الأوان ! ثم إنى أحبها !

وقال بصوت مرتفع ، وقد تذكر ما يقوله الناس فى هذه المناسبة :

– أحبك !

ولكن الكلمات بدت هزيلة الجرس ، حتى أنه خجل من نفسه .

وبعد ستة أسابيع كان قد تزوج ، وصار المالك السعيد لزوجة حسناء وملايين الروبلات كما قال الناس ، واستقر فى قصره المجدد قصر الكونت بيزوهوف فى بطرسبرج .

* * *

- ٣ -

فى ديسمبر سنة ١٨٠٥ تلقى الأمير نيقولاى أندريفتش بلكونسكى الشيخ رسالة من الأمير فاسيلى ، يخبره فيها أنه ينوى زيارته مع نجله. وقد جاء فى هذه الرسالة :

— إنى ذاهب فى جولة تفتيشية ، وطبعاً ليست المائة فرسخ إلا خطوة صغيرة أخطوها كى أزورك ، يا ولى نعمتى العزيز المبجل . ويحلى أناتول بصحبتى فى طريقه للالتحاق بالجيش ، وأتمنى أن تسمح له بأن يعبر لك عن إجلاله لشخصك ، وهو إجلال توارثه الابن عن أبيه .

وقالت الأميرة الصغيرة زوجة ابن الشيخ عندما سمعت هذا النبأ :

— الحمد لله أننا لسنا بحاجة إلى إبراز مارى للمجتمع الراقى بالمدينة ، فهاهم الخاطبون يتوافدون علينا هنا !

أما الأمير الشيخ فعبس ولم يقل شيئاً .

وبعد أسبوع من تلقى هذه الرسالة ، وصل خدم الأمير فاسيلى ذات مساء قبل وصوله . وفى اليوم التالى جاء هو شخصياً مع نجله .

وكان رأى الأمير بلكونسكى الشيخ فى الأمير فاسيلى سيئاً على الدوام . وقد زادت هذه الفكرة عنه سوءاً بعد أن ارتقى الأمير فاسيلى إلى أعلى المناصب فى حكم بول وألكسندر . ومن صيغة الرسالة ، ومن

تلميحات الأميرة الصغيرة أدرك الغرض من هذه الزيارة ، وتحول سوء رأيه فى الأمير فاسيلى إلى سوء نية وازدراء . وجعل يمخر باستهجان كلما تحدث عنه . وفى يوم وصول الأمير فاسيلى كان الأمير الشيخ ساخطاً بصفة خاصة وضيق الصدر . سواء أكان ساخطاً بسبب حضوره ، أو لحضوره وهو ضيق الصدر منقبض المزاج ، فذلك أمر لا علم لأحد به . ولكنه كان ضيق الصدر على كل حال ، وفى الصباح ثنى تيهون Tihon المهندس المعمارى عن الدخول إلى الأمير بتقريره اليومى ، وقال تيهون منبهاً المهندس إلى وقع أقدام الأمير الشيخ :

— أصغ إلى مشيته ! إنه يمشى على كعبيه .. ونحن نعرف ما معنى هذا !

ومع هذا ، فى الساعة التاسعة خرج الأمير يتمشى كالعادة ، مرتدياً عباءته القصيرة المخملية المبطنة بالفراء ولها ياقة من السمور ، وقلنسوة من الفراء . وكان الجليد قد تساقط فى الليلة السابقة . وكان الطريق الذى يتمشى فيه الأمير نحو الصوبة قد نظف ، وكانت هناك آثار لعمل المقشات فى الجليد ، وترك البستانى جاروفاً مغروساً فى كومة الجليد بجوار الممشى . ومشى الأمير مخترقاً الصوبات ، ومساكن الخدم ، والمبانى الخارجية وهو عابس صامت ثم سأل وكيل دائرته الذى كان يمشى وراءه إلى البيت :

— أيمكن لزحافة أن تسير إلى هنا ؟



وشعر « ألباتتش » (وكيل الدائرة) بسوء أدبه لأنه راغ من الضربة ، فاقترب ثانية من مولاه برأسه الأصلع وانحنى ..

— الجليد عميق يا صاحب السعادة . وقد أمرت بتنظيف الممشى الأمامى .

وهز الأمير رأسه ، وقد اقترب من السلم ، وقال وكيل الدائرة :

— المجد لله ! لقد انتهت العاصفة بسلام ! ولو استمرت لتعذر حضور الزحافات ، وقد سمعت أن وزيراً سوف يزور سعادتكم اليوم .

فالتفت الأمير إلى وكيل الدائرة ورشقه بنظرة حادة وقال وهو عابس بصوت قاس :

— وزير ؟ أى وزير ؟ من الذى أصدر إليك الأوامر ؟ أنت لا تنظف الممر للأميرة ابنتى ، أما للوزير فتنظفه ! أما أنا فلا أريد وزراء هنا !

— يا صاحب السعادة ، لقد ظننت ....

فصاح الأمير فى ثورة أشد وصوت أحد :

— ظننت ؟ سأريك كيف تكون الظنون !

ورفع عصاه وكاد يهوى بها على أم رأسه ، لولا أن وكيل الدائرة راغ من الضربة ...

— سأريك ! سأريكم جميعاً يا أوغاد !

وشعر « ألباتتش » Alpatitch (وكيل الدائرة) بسوء أدبه لأنه راغ من الضربة ، فاقترب ثانية من مولاه برأسه الأصلع وانحنى

أمامه بخضوع . ولأنه فعل هذا لم يرفع الأمير عصاه مرة أخرى ، ولكنه استمر يصيح :

— وغد ! سافل ! اردم حالا الطريق واغمره كما كان بالجليد !

ثم أسرع يجرى إلى حجرته .

* * *

وقفت الأميرة ماريا Marya والآنسة بورين Bourienne فى انتظار الأمير قبل الطعام وهما تعلمان أنه منحرف المزاج . وكانت سحنة الآنسة بورين تقول :

— أنا لا علم لى بشىء . أنا كما أنا .

أما الأميرة ماريا فوقفت شاحبة مرتعبة ، مسبلة العينين . وما جعل الأمر أشق على الأميرة أنها كانت تعرف أنها ينبغى أن تكون مثل الآنسة بورين فى مثل هذه الأحوال . ولكنها لم تستطع . وكانت تحس أنها لو تصرفت كما لو كانت لم تلاحظ شيئاً ، فسيظن أنها مجردة من التعاطف معه . وإذا تصرفت كما لو كانت مكتئبة ومنحرفة المزاج سيقول (كما قال قبل هذا مراراً) إننى عابسة وساخطة ، وما إلى هذا .

ونظر الأمير إلى وجه الأميرة ابنته المذعور ونخر ، وغمغم ، وقال لنفسه :

— غبية ! والأخرى ليست هنا ! لقد قالوا لها شيئاً بالفعل !

فقد لوحظ لأول وهلة عدم وجود الأميرة الصغيرة ، وسأل :

— أين الأميرة ليزا ؟ مختبئة ؟

فقالت الآنسة بورين بابتسامة مشرقة :

— إنها ليست على ما يرام . وسوف لا تنزل . وهذا متوقع فى مثل حالتها .

فزمجر الأمير ، وجلس إلى المائدة . وظن أن طبقه غير نظيف فأشار إلى علامة فيه ثم رمى به بعيداً . وتلقفه تيهون وأعطاه لأحد الخدم . وكانت الأميرة الصغيرة بخير حال ، ولكنها عندما سمعت أنه ضيق الصدر قررت ألا تنزل . وقالت لبورين :

— أنا خائفة على طفلى . والله أعلم ماذا يمكن أن يترتب على الفزع !

والواقع أن الأميرة الصغيرة كانت تعيش فى قصر ضيعة « بليك هيلز » Bleak Hills فى حالة رعب مستمر من الأمير الشيخ . وكانت تنفر منه نفوراً لا شعورياً ، ولكن هذا الرعب كان يطغى على كل شعور آخر لديها . وكان نفس النفور موجوداً عند الأمير أيضاً ، ولكنه كان رعباً منطوياً داخل شعور بالازدراء . ومع استمرار بقاء الأميرة فى الضيعة توثقت صداقتها ببورين ، فصارت تقضى أيامها معها ، ورجتها أن تنام فى حجرتها ، وكانت كثيراً ما تحدثها عن حميها وتنتقده .

وقالت الآنسة بورين وأناملها الوردية تبسط فوطة الطعام :

— نحن فى انتظار ضيوف قادمين يا أمير . صاحب السعادة

الأمير فاسيلى كوراجين وابنه ، كما قيل لى . أليس كذلك ؟

فزمجر الأمير وقال بغطرسة :

ـ هممهم ! صاحب السعادة هذا حديث النعمة ووصولى . وأنا الذى أتحت له مكانه فى الكلية ولست أفهم فيم حضور ابنه هذا . وربما استطاعت الأميرة ليزا والأميرة ماريا أن تقولا لنا . فلست أعرف أنا لماذا يأتى بابنه إلى هنا . أنا لا أريده !

ونظر إلى ابنته التى صار وجهها قرمزياً ، واستطرد هو :

ـ الأميرة ليزا ليست بخير حال ؟ هه ؟ ألعلها مذعورة من الوزير ، كما دعاه ذلك الأحمق ألباتتش اليوم ؟

فقالت الأميرة ماريا بالفرنسية :

ـ لا يا أبى !

ولما وجدت نفسها لم تفلح فى مواصلة الحديث كما أفلحت الآنسة بوريين ، لم تواصله ، ولكنها راحت تشارك فى الأحاديث ، وعلقت على جمال زهرة تفتحت لتوها . وبعد تناول الحساء توقف الأمير عن الكلام . وبعد الانتهاء من الطعام ذهب ليرى زوجة ابنه . وكانت الأميرة الصغيرة جالسة إلى منضدة صغيرة تثرثر مع ماشا خادمتها ، فشحب وجهها عندما رأت حماها .

وكانت الأميرة الصغيرة قد تغيرت كثيراً ، وبدت قبيحة لا مليحة كما كانت ، فخداها غائران ، وشفتها العليا مشدودة إلى أعلى ، وعيناها زائغتا النظرات .

وقالت رداً على سؤال الأمير عن حالها :

ـ نعم . أشعر بنوع من الثقل .

ـ ألست بحاجة إلى شىء ؟

ـ لا . وشكراً لك يا أبى .

ـ أوه . حسن جداً إذن . حسن جداً .

فخرج إلى حجرة الانتظار ، فوجد ألباتتش واقفاً هناك مغضباً وسأله :

ـ أملأت الطرق بالثلج كما كانت ؟

ـ نعم يا صاحب السعادة . سألتك الله أن تصفح عنى ، فقد كانت غلطة .

فقاطعه الأمير بضحكته غير الطبيعية وقال :

ـ حسن جداً .. حسن جداً .

ومد يده ، التى قبلها ألباتتش ، ثم ذهب إلى مكتبه .

وفى المساء حضر الأمير فاسيلى ، وقابله على الطريق حوذيه وخدم آل بلكونسكى الذين جروا عرباته وزحافاته إلى القصر ، فوق طرق كانت قد سدت بالجليد عمداً .

واقتيد الأمير فاسيلى وأناتول إلى جناحين منفصلين .

وجلس أناتول واضعاً كوعيه على المنضدة ، فى ركن ركز عليه عينيه الواسعتين الجميلتين باسماً ، وفى نظرته عدم اكتراث . فقد ظل ينظر إلى الحياة طول عمره على أنها استمتاع متواصل ، وعلى

أحد غيره – أياً كان – أن يعوله ويوفر له كل شىء . وبنفس هذه الروح صار ينظر إلى زيارته هذه لذلك الأمير المسن المتجهم وابنته الثرية البالغة القبح . وقد ينتهى الأمر كله نهاية على ما يتوقع من المتعة واللطف ! وقال فى نفسه :

– ولماذا لا أتزوج ؟ ما دامت تملك ثروة . فالمال دائماً منافعه وهو لا يضر على أى حال !

وحلق ذقنه، وتعطر بنفس العناية التى صارت عادة له، وبمرحه ، الذى تعود أن يكسب به كل القلوب اتجه إلى حجرة أبيه ، رافع الرأس عالياً . وكان حاجبان مشغولين فى إلباس الأمير فاسيلى ، وهو ينظر فيما حوله بحماسة . ونظر إلى ابنه وابتسم وكأنه يقول له :

– نعم . هكذا كنت أريد أن أراك !

وسأل أباه بالفرنسية ، وكأنه يشير إلى موضوع سبق لهما مناقشته أثناء الرحلة :

– دعنا من المزاح يا بابا . أهى قبيحة جداً ؟ هه ؟

– هراء ! أهم شىء بالنسبة لك أن تبذل جهدك كى تبدو محترماً وعاقلا مع الأمير الشيخ .

فقال أناتول :

– إن اشتد سخفه، نفضت يدى منه . فأنا لا أطيق هؤلاء السادة المسنين !

– تذكر أن كل شىء بالنسبة لك يتوقف على رضاه عنك .

وفى هذه الأثناء ، فى الجانب النسائى من القصر ، لم يكن وصول الوزير وابنه معروفاً فحسب ، بل كان منظر كل منهما قد تم وصفه تفصيلا وبكل دقة . وكانت الأميرة ماريا جالسة بمفردها فى حجرتها تبذل قصارى جهدها كى تسيطر على انفعالاتها الداخلية . وكانت تقول لنفسها :

– لماذا كتبوا هذه الرسائل ؟ ولماذا أخبرتنى بها ليزا ؟ لماذا ؟ هذا كله مستحيل !

وراحت تنظر فى مرآتها وأردفت :

– ولكن كيف أدخل حجرة الاستقبال ؟ وحتى لو استلطفته لن أكون طبيعية معه الآن .

وكان مجرد تفكيرها فى عينى أبيها كافياً لإلقاء الرعب فى قلبها . وكانت الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين قد حصلتا بالفعل على المعلومات الضرورية من الخادمة ماشا ، فعرفتا إلى أى حد كان ابن الوزير وسيما ، مورد الخدين ، أسود الحاجبين . وكيف كان والده يجر رجليه جراً وهو صاعد السلم بصعوبة ، أما الابن فكان كالنسر الفتى يقفز السلالم ثلاثاً ثلاثاً . وبمجرد حصول الأميرة ليزا والآنسة بوريين على هذه المعلومات « الثمينة » ، ارتفع لغط صوتيهما المتحمسين وهما فى الدهليز ، ذاهبتين إلى حجرة الأميرة ماريا .

وقالت الأميرة الصغيرة وهى تتهادى داخلة ثم تجلس بتثاقل فى مقعد وثير :

— لقد حضرا يا مارى ، أتعلمين هذا ؟

ولم تكن مرتدية الثوب الذى كانت تلبسه فى الصباح ، بل استبدلت به ثوباً من أحسن ما عندها من الأثواب ، وكان شعرها مرجلا ومنسقاً بعناية ، ووجهها طافحاً باللهفة والحماسة والإثارة ، وإن كان هذا لم يخف شحوبها . بل إن ما فقدته من ملاحتها الآن بسبب الحمل صار أوضح وهى فى ثوب مما تعودت الظهور به فى مجتمعات بطرسبرج . وكذلك الآنسة بوريين اعتنت بملبسها وزينتها ، بحيث بدا وجهها المليح أشد ملاحة وجاذبية .

وقالت الآنسة بوريين :

— ما هذا ؟ وكيف ظللت على حالك يا أميرتى العزيزة ؟ سيأتون بعد لحظة لكى يقولوا لنا : إن السيدين فى حجرة الاستقبال . وسيكون علينا عندئذ أن ننزل ، ولا أراك صنعت شيئاً بعد لتبديل ثيابك .

ونهضت الأميرة الصغيرة من مقعدها ورنت الجرس للخادمة ، وبسرعة راحت ترتب ما سوف ترتديه الأميرة ماريا ، وتنفذ أفكارها . وشعرت الأميرة ماريا بجرح فى كبريائها لما استولى عليها من اضطراب بسبب وصول طالب يدها . واستولى عليها شعور بالخزى لأن رفيقتيها تتصوران أنها ينبغى ألا تضطرب . ولو صارحتهما بمبلغ خجلها من نفسها ومنهما لكان ذلك خليقاً أن يشى بخبيئة نفسها . ولو رفضت أن تبدل ثيابها كما اقترحتا عليها بإلحاح .

لعرضت نفسها للسخرية والإلحاح . فاحمر وجهها ، وغامت عيناها ، وتركت نفسها للآنسة بوريين وليزا فى صمت ، وفى تخاذل زاد افتقارنا إلى الجمال وضوحاً . وبذلت المرأتان كلتاهما جهدهما بكل إخلاص لكى تجعلاها تبدو على ما ينبغى ، ومقبولة المنظر . وكانت عادية الشكل جداً بحيث لم يخطر ببالها أنها يمكن أن تنافسهما فى حسن الشكل . لذا كانتا مخلصتين كل الإخلاص فى محاولة تجميلها ، وبسذاجة اعتقدا أن ثوباً معيناً يمكن أن يجعلها تبدو مليحة .

ونظرت ليزا نظرة جانبية إلى الأميرة ماريا عن بعد وقالت :

— كلا يا عزيزتى ! هذا الثوب ليس جميلا ... قولى للخادمة تلبسك هذا الثوب المخمل الطوبى الذى أراه هناك . آه . حقاً . لابد . أنت تعلمين أن هذه ربما كانت نقطة التحول فى حياتك بأسرها . هذا الثوب فاتح جداً ! كلا ! إنه ليس المطلوب !

ولم يكن العيب فى الثوب ، بل فى وجه الأميرة وكل قدها . وقد شعرت بهذا الآنسة بوريين والأميرة الصغيرة . ولكنهما مع هذا تصورتا أنها لو زينت شعرها بشريط أزرق ، ورفعتاه إلى أعلى ، وأنزلتا النطاق إلى أسفل فوق الثوب الطوبى وما إلى هذا ، فسوف يكون كل شيء على ما يرام . ونسيتا أن وجه وقد الأميرة ماريا لن يمكن تغييرهما ، ولذا فهما اجتهدا فى التزيين والأناقة ، فسوف يظل الوجه كله كالحاً قبيحاً يثير الرثاء . وبعد تغييرين أو ثلاثة ، أذعنت لهما الأميرة ماريا باستسلام ، وبعد أن تم تصفيف الشعر إلى

أعلى ، ووضع الشريط الأزرق فيه ، وإنزال النطاق فوق الثوب المخمل الطوبى ، دارت الأميرة الصغيرة حولها مرتين ، وسوّت بيدها ثنية هنا ، وجذبت النطاق قليلا ، ونظرت إليها من هذه الجهة أولا ، ثم من الجهة الأخرى بعد ذلك ، قالت وقد رفعت يديها إلى أعلى :

— كلا ! هذا ليس على ما يرام . كلا يا مارى . هذا الزى لا يلائمك ، وأحسبك تبدين أفضل من هذا فى ثوبك الرمادى الذى ترتدينه كل يوم .

والتفتت إلى الخادمة كاتيا Katya وقالت لها :

— من فضلك يا كاتيا هات ثوب الأميرة الرمادى . وانظرى يا آنسة بوريين كيف سأنسقه .

وابتسمت فى تخيل الفنانة عما ستبدعه ، وعندما أحضرت كاتيا الثوب كانت الأميرة ماريا ما زالت جالسة كالتمثال أمام المرآة ، تنظر إلى وجهها . ولاحظت أن فى عينيها دموعاً ، وأن فمها يرتجف وأنها على وشك الانفجار فى البكاء .

وقالت الآنسة بوريين :

— تعالى يا أميرتى العزيزة . جهد آخر صغير ...

وتناولت الأميرة الصغيرة الثوب من يد الخادمة ، واتجهت صوب الأميرة ماريا وقالت :

— والآن سنجرب شيئاً بسيطاً وله سحره .

واندمج صوتها وصوت الآنسة بوريين وضحكة كاتيا الرجراجة فى زقزقة واحدة كأنها تغريد العصافير . فقالت الأميرة :

— أتركننى وشأنى !

وكان فى صوتها من الجد والتعاسة ، بحيث توقفت زقزقة العصافير على الفور . ونظرن إلى العينين الكبيرتين الجميلتين الملآنتين بالدموع والشجن ، وهى تتطلع إليهن فى توسل وأدركن أن الإلحاح لا جدوى منه ، وفيه قسوة .

وقالت الأميرة الصغيرة :

— غيرى تصفيف شعرك على الأقل .

وقالت فى عتاب للآنسة بوريين :

— ألم أقل لك ؟ هناك وجوه لا يلائمها هذا الأسلوب فى تصفيف الشعر إطلاقاً إطلاقاً ! غيريه الآن من فضلك !

فقالت الأميرة ماريا بصوت لا يكاد يغالب الدموع :

— أتركننى وشأنى ! أتركننى وشأنى !

فلم يسع الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين إلا أن تعترفا بأن الأميرة ماريا كانت عاطلة من الجمال تماماً فى هذا الزى ، بل وأسوأ منظراً من المعتاد . ولكن فات الأوان ! فقد كانت تنظر إليهما بتعبير تعرفانه جيداً : تعبير يدل على عمق التفكير والحزن . ولكن هذا التعبير لم يكن يوحى بالخوف (فهذا شعور لم يكن من الممكن أن توحيه إلى أى أحد) . ولكنهما كانتا تعرفان أنه متى ظهر هذا

التعبير على وجهها صمتت ، وصارت قراراتها لا رجعة فيها .

وقالت الأميرة ليزا مرة أخيرة :

– ستغيرين تصفيف شعرك . أليس كذلك ؟

ولما لم ترد عليها الأميرة ماريا ، غادرت ليزا الحجرة .

وتركت الأميرة ماريا وحدها . ولم تنفذ رغبات ليزا ، ولم تعد تنسيق شعرها ، بل ولم تنظر فى المرآة ، وتركت يديها تسترخيان ، وكذلك أسبلت عينيها فى يأس ، واستسلمت لأحلام اليقظة . فتصورت زوجها رجلا ، قوياً ، مسيطراً ، وجذاباً بصورة لا يتخيلها عقل ، سيحملها على الفور إلى عالم سعيد مختلف تماماً عما تعيش فيه ، هو عالمه الخاص . وتصورت أنها تحمل على صدرها طفلا ، هو طفلها هى ، مثل الأطفال التى رأتهم على صدور بنات مربيتها العجوز ، ورأت بعين خيالها الزوج واقفاً ينظر بحنان إليها وإلى الطفل . ثم قالت لنفسها :

– لا . لا . هذا لن يكون . فأنا بالغة القبح !

وناداها صوت الخادمة من عند الباب :

– تفضلى بالنزول لتناول الشاى . فسوف يدخل الأمير الآن مباشرة .

فحدقت فيها مجفلة مرتاعة مما كانت تفكر فيه . وقبل أن تنزل دخلت إلى المصلى ، وثبتت نظرها على تمثال المخلص ، ووقفت بضع دقائق أمامه معقودة اليدين . وقد امتلأت نفس الأميرة ماريا

بشك يعذبها : أترى من الممكن أن تكتب لها الأفراح والمحبة الأرضية المتاحة لبنى البشر ؟ وكانت الأميرة ماريا فى أحلام يقظتها بالزواج ، قد حلمت بالسعادة فى بيت يخصها ، مع طفل يخصها . ولكن أهم أحلامها جميعاً كان حلم الحب الأرضى الدنيوى . وكان هذا الحلم يزداد قوة كلما اجتهدت فى إخفائه عن الآخرين ، بل وعن نفسها . وقالت :

– ربى ! كيف يمكننى أن أكبح فى قلبى إغراءات الشيطان هذه ؟ كيف يمكننى أن أتنازل إلى الأبد عن كل هذه الأفكار الشريرة ، كى أنفذ مشيئتك فى سلام ؟

وما كادت توجه إلى الله هذا السؤال حتى جاءها جوابه فى فؤادها :

– لا ترغبى شيئاً ولا تشتهى شيئاً لنفسك . ولا تقلقى ولا تحسدى فستقبل البشر ومصيرك أنت أيضاً لابد أن يظل مجهولا لك ، بل عيشى وكونى مستعدة لكل شىء . فإن كانت إرادة الرب أن يجربك بواجبات الزوجية ، كونى مستعدة للطاعة وإنفاذ مشيئته !

وبهذه الخواطر المهدئة المطمئنة (وإن كانت لم تزل تحلم ذلك الحلم الأرضى المحرم) رسمت الأميرة ماريا الصليب على صدرها ، وتنهدت ونزلت . من غير أن تفكر فى ثوبها ولا فى هيئة شعرها ، ولا كيف ستدخل أو ماذا ستقول . فما قيمة هذا كله إلى جانب إرشاده السماوى؟ وهل بدون إرادته يمكن أن تسقط شعرة من رأس إنسان ؟

– ٤ –

عندما دخلت الأميرة ماريا الحجرة كان الأمير فاسيلى وابنه فى حجرة الاستقبال من قبل ، يتحدثان مع الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين . ولما دخلت بخطوتها الثقيلة الوطء، لأنها كانت تمشى على كعبيها ، نهض السيدان والآنسة بوريين ، وأشارت لها الأميرة الصغيرة قائلة :

– ها هى مارى !

ورأتهم الأميرة ماريا جميعاً وبالتفصيل . رأت وجه الأمير فاسيلى الذى بدا عليه الجد لحظة عندما وقع نظره عليها ، ثم أسرع بالابتسام ورأت وجه الأميرة الصغيرة ليزا وهى تتفحص وجهى الضيفين بفضول كى تستشف وقع منظر مارى عليهما . ورأت الآنسة بوريين أيضاً بشريطها ووجهها الجميل ، وقد التفتت بوريين إليه (إلى الابن) بلهفة لم ترها على وجهها قط من قبل . أما « هو » فلم تستطع أن تراه ، فكل ما رأته فقط كان شيئاً كبير الحجم . مشرق اللون ، وسيماً ، يتحرك نحوها بينما هى تدخل الحجرة . ووصل إليها الأمير فاسيلى أولا ، فقبلت رأسه الأصلع وهو منحن لكى يقبل يدها ، ورداً على كلماته قالت إنها على العكس تتذكره تماماً . ثم أقبل أناتول عليها . ولم تزل عاجزة عن رؤيته ، وكل ما هناك أنها أحست يداً ناعمة تتناول يدها بقوة ، ولمست بشفتيها جبيناً كان يعلوه شعر

جميل أشقر يفوح منه عبير دهان عطرى . ولما نظرت إليه انبهرت بجماله . وكان أناتول واقفاً وإبهام يمناه على أحد أزرار سترته العسكرية ، عريض الصدر ، مستقيم الظهر ، ويعبث فى الأرض بإحدى قدميه ، وقد مال برأسه إلى أحد الجانبين . وهو ينظر صامتاً إلى الأميرة بوجه يفيض بشراً ، ومن الواضح أنه لم يكن يفكر فيها على الإطلاق .

ولم يكن أناتول حاضر البديهة ، ولا بليغاً فى الحديث والحوار ، ولكنه كان يتمتع بمزية لها قيمتها الاجتماعية هى رباطة الجأش والثقة التى لا تتزعزع . فلو أن غيره فى مكانه لأقلقه ما يقول وما يصنع ، أما هو فلم يكن مبالياً . وكان مظهره كله يدل على هذا . ثم إنه كان يتمتع فى سلوكه مع النساء بخاصية تجعله مثار رهبة وفضول ، بل ومثار حب لديهن ، وهى صفة الشعور المتعالى بتفوقه ، وكأنما مسلكه العام يقول لهن :

– أنا أعرفكن . ولكن لماذا أتعب دماغى بالتفكير فيكن ؟ أنا أعلم أنكن ستسعدن كثيراً بالنظر إلى ، بطبيعة الحال !

ولعله لم يكن يفكر على هذا النحو حين يرى النساء ، لأنه فى الواقع لم يكن يفكر إلا قليلا جداً فى أى موضوع وفى أى وقت . ولكن هذا كان تأثير مظهره وسلوكه . وشعرت الأميرة ماريا بهذا، ولكى تريه أنها لا تفكر حتى فى استلفات نظره أو استرعاء انتباهه ، اتجهت إلى والده بالحديث ولالتفاته . وكانت المحادثة عامة ومتدفقة ،

بفضل صوت الأميرة الصغيرة ليزا وشفتها الصغيرة المغطاة بالزغب الناعم التى كانت طول الوقت تعلو وتنخفض فوق أسنانها البيضاء . وكانت تضاهى الأمير فاسيلى فى تلك النبرة المداعبة التى يصطنعها الثرثارون لملء الفراغ ، وتتناثر فى الحديث عندئذ الملح والدعابات والنكات ، والذكريات الخاصة الممتعة ، والأوساط المشتركة التى تجمع بين أبناء مجتمع واحد ، حتى عندما لا تكون هناك ذكريات خاصة تجمع بين الأمير فاسيلى والأميرة الصغيرة بالذات . وأمتعت هذه الطريقة الأمير فاسيلى فاسترسل فيها ، وراح يروى أحداثاً لعل بعضها لم يقع أصلا ، ولكنها مسلية ، ثم استدرج أناتول أيضاً إلى هذا النوع من الحوار ، وسرعان ما ارتاحت إليه الأميرة الصغيرة مع أنها لم يسبق لها أن التقت به ، وإن كانت — كما تعلم — تعرف أخاه إيبوليت . ونجحت الآنسة بوريين أيضاً فى المشاركة فى الحديث المرح ، حتى أن الأميرة ماريا لم تجد رهبة ولا حرجاً فى المشاركة أيضاً فى هذا الجو المازح الظريف .

وقالت الأميرة الصغيرة للأمير فاسيلى بالفرنسية طبعاً :

— إننا على كل حال سنستفيد من وجودك معنا الآن إلى أقصى حدّ يا عزيزى الأمير . فأمسياتنا هنا ليست كما تعودنا أن تكون الأمسيات عند صديقتنا العزيزة « أنيت » ، حيث كنت أراك دائماً أتتذكر عزيزتنا أنيت ؟

— آه . طبعاً . ولكن أرجوك لا تكلمينى فى السياسة مثل أنيت !

— وهل تذكر مائدة الشاى الصغيرة ؟

— أوه ! نعم !

وعندئذ وجهت الأميرة الصغيرة كلامها إلى أناتول وسألته :

— لماذا لم نكن نراك أبداً عند أنيت ؟ آه ! أعرف السبب ! أعرفه !

وغمزت بعينها واستطردت :

— أخوك إيبوليت روى لى قصصاً عن أفاعيلك !

وهزت سبابتها ضاحكة وأردفت :

— وأعرف أفاعيلك فى باريس أيضاً !

والتفت الأمير فاسيلى إلى ابنه وسأله وهو يمسك بذراع الأميرة الصغيرة كأنها تهم بالهرب ولكنه منعها فى الوقت المناسب :

— آه . ولكن إيبوليت لم يذكر لك يا أناتول أبداً كيف كان قلبه ينفطر حباً وغراماً بأميرتنا الحسناء ، وكيف صدته هى وطردته من حظوتها !

ثم التفت إلى الأميرة ماريا وإلى الآنسة بوريين الجالسة بجوارها وقال :

— أوه ! إنها لؤلؤة نادرة بين النساء يا أميرة !

ولما جرى ذكر باريس على لسان الأميرة الصغيرة ، لم تفلت الآنسة بوريين هذه الفرصة الذهبية ، لكى تدلى بدلائها فى سرد الذكريات المشتركة . واستفسرت من أناتول هل غادر باريس منذ

مدة طويلة . وهل أحب تلك المدينة . وبادر أناتول بالاستجابة للآنسة الفرنسية باسماً ، وهو يحملق فيها ، وراح يحدثها عن وطنها ومسقط رأسها . وكان أناتول منذ وقع نظره على الآنسة الحسناء قد قرر أن إقامته ها هنا فى بليك هيلز لن تكون مملة . وقال فى نفسه وهو يفحصها جيداً :

— لا بأس بشكلها إطلاقاً ! يا لها من مرافقة جذابة ! وأتمنى أن تأخذها معها عندما نتزوج . فهى مخلوقة صغيرة بديعة !

أما الأمير الشيخ فكان يرتدى ملابسه على مهل فى حجرته ، مقطباً يفكر فيما سوف يصنع . فقد أغضبه وصول هذين الزائرين ، وجعل يقول فى نفسه مزمجراً :

— وما شأنى أنا بالأمير فاسيلى ، هو ونجله ؟ الأمير فاسيلى مدع وأحمق فارغ الرأس ، وأتوقع أن يكون ابنه على غراره .

وما أغضبه فى الواقع أن هذه الزيارة أحيت فى ذهنه المسألة التى لم يستطع تسويتها أو حسمها ، وكان دائماً ينحيها جانباً ، وهى المسألة التى كان الأمير الشيخ يغالط نفسه فيها دائماً ويخدعها . وهذه المسألة هى هل يمكنه أن يتحمل فراق ابنته ويزوجها لرجل يوماً ما . ولم يستطع الأمير أن يوجه لنفسه أبداً هذا السؤال بصورة مباشرة . لعلمه أنه لو واجه نفسه بهذا السؤال لتحتم عليه أن يجيب عنه بمقتضى العدالة والصواب . ولكن كان يقف ضد العدالة والصواب فى هذه الحالة شىء أقوى من المشاعر . كان يقف ضدهما ! مكان الحياة

نفسه . فحياته بدون الأميرة ماريا كانت غير متصورة لدى الأمير الشيخ ، وإن كان فى الظاهر قلما يبدى اكتراثاً بها أو تقديراً لها .

وقال فى نفسه :

— ولماذا تتزوج ؟ إن مصيرها سيكون الشقاء لا محالة . انظر إلى ليزا مع أندريه . (وما من زوج يمكن أن يوجد هذه الأيام خير منه فيما أعتقد) ولكن زوجته غير راضية عن نصيبها مع هذا . ثم من ذا الذى يمكن أن يتزوجها حباً فيها ؟ إنها عاطلة من الجمال خالية من الرشاقة واللطف . إنها لن تتزوج إلا من أجل نسبها وثروتها . ثم ألا تعيش العوانس حياة كريمة مستقرة ؟ إنهن أسعد حالا بالفعل !

هكذا جرت خواطر الأمير أندريه أندريفتش بلكونسكى ، وهو يرتدى ملابسه ، ولكن السؤال الذى ظل يروغ منه ، ظل يلح عليه يطلب الإجابة الفورية . فالأمير فاسيلى قد جاء معه بابنه قطعاً على نية طلب يدها ، ولعله اليوم أو غداً سيطلب الرد الصريح . والاسم والمركز الاجتماعى مناسبان . وظل الأمير يقول لنفسه :

— أنا لست ضد هذا العرض . ولكن بشرط أن يكون جديراً بها وهذا ما سوف نراه . هذا ما سوف نراه .

ثم اتجه بخطوته الثابتة اليقظة المعتادة إلى حجرة الاستقبال ، وشمل المجموعة كلها بنظرة خاطفة . ولاحظ على الفور التغيير الذى طرأ على زى الأميرة الصغيرة ، كما لاحظ شريط الآنسة بورين ، والطريقة البشعة التى صففت بها الأميرة ماريا شعرها ، وأيضاً

الابتسامات المتبادلة بين المرافقة الفرنسية وأناتول ، وانعزال ابنته عن الحديث العام المتبادل . وقال فى نفسه وهو ينظر بغيظ إلى ابنته :

– لقد أساءت مظهرها فى حماقة . وهو لا يعيرها التفاتاً ولا يعنى بالحديث معها .

واتجه صوب الأمير فاسيلى وقال له :

– كيف حالك . كيف حالك . أسعدنى أن أراك .

فقال الأمير فاسيلى متمثلا بالمثل الروسى ، بطريقته السريعة الواثقة الأنيسة :

– ما أقرب المسافات البعيدة كى يرى المرء صديقاً يحبه . هذا ابنى الثانى . وأرجوك أن تحبه وأن ترحب به !

ورشق الأمير الشيخ أناتول بنظرة فاحصة وقال :

– فتى رائع ! فتى رائع ! تعال الآن وأعطنى قبلة .

وقدم له الشيخ خده . فلثم أناتول الشيخ ونظر إليه بفضول وثبات تام ، فى انتظار بادرة من أطواره الغريبة التى قال له أبوه إنه ينبغى أن يتوقعها .

وجلس الأمير الشيخ فى مكانه المعتاد فى ركن الأريكة ، وحرك بيده كرسياً وثيراً ليجلس فيه الأمير فاسيلى ، وأشار له إليه وبدأ يسأله عن الشئون السياسية والأنباء . وبدا عليه الإنصات بانتباه لما كان يقوله الأمير فاسيلى ، ولكنه كان طول الوقت ينظر نحو الأميرة ماريا .



هكذا جرت خواطر الأمير أندريه أندريفتش بلكونسكى ، وهو يرتدى ملابسه ، ولكن السؤال الذى ظل يروغ منه ، ظل يلح عليه ..

وكرر عبارة الأمير فاسيلى الأخيرة :

— هم إذن يكتبون الآن من بوتسدام ؟

وفجأة نهض واقفاً واتجه إلى ابنته وقال لها :

— أمن أجل الضيفين ارتديت هذا الزى ؟ هه ؟ هذا جميل منك جيل جداً ! وأنت أيضاً تغيرين تصفيف شعرك قبل حضور الضيوف وأنا الآن أقول لك إياك فى المستقبل أن تغيرى زيك بدون إذنى !..

فقالت الأميرة الصغيرة متلعثمة وقد احمر وجهها :

— لقد كانت غلطتى أنا !

فرمق زوجة ابنه بنظرة صارمة وقال :

— أنت حرة فى نفسك . أما هى فلا حاجة بها إلى التنكر على هذه الصورة . فهى قبيحة الشكل بغير حاجة إلى هذا !

وعاد للجلوس فى مكانه ، ولم يعر ابنته بعدها التفاتاً ، وهى تبكى بدموع مدرارة . وقال الأمير فاسيلى :

— بالعكس : إنى أرى هذا التصفيف لشعرها ملائماً جداً للأميرة .

فقال الأمير الشيخ موجهاً كلامه لأناتول :

— والآن يا أميرى الشاب ، ما اسمك ؟ تعال هنا بقربى ، كى نتعارف ونتحدث معاً بعض الوقت .

فقال أناتول فى نفسه :

— ها قد بدأت التسلية !

واتخذ مجلسه باسماً بجوار الأمير . وقال الشيخ له وهو يرمقه بنظرة فاحصة :

— هذا حسن . قيل لى يا فتاى العزيز إنك تلقيت تعليمك فى الخارج ، ولم تتعلم القراءة والكتابة مثلى ومثل أبيك أيضاً على يد الشماس . خبرنى أأنت الآن فى خيالة الحرس ؟

فأجابه أناتول ، وهو يغالب الضحك بصعوبة :

— لا . بل نقلونى إلى خط القتال .

— آه . هذا حسن ! إذن أنت تريد أن تخدم قيصرك ووطنك . أليس كذلك ؟ نحن الآن فى أوقات حرب . وفتى مليح مثلك ينبغى أن يكون فى الخدمة العاملة . هل أرسلوك إلى الجبهة ؟

— لا يا أمير . لقد ذهب آلاينا إلى الجبهة ، أما أنا فملحق . بأى شىء أنا ملحق يا بابا ؟

والتفت أناتول إلى أبيه ضاحكاً . فضحك الأمير الشيخ وقال :

— لا شك أن له قيمة كبيرة فى الخدمة العاملة ! بأى شىء أنا ملحق يا بابا ؟ ها هاها !

واشتد ضحك أناتول أيضاً ، فقطب الأمير الشيخ فجأة وقال لأناتول :

— عظيم ! لك أن تنهض !

وعاد أناتول إلى مجالسة السيدات باسماً . وقال الشيخ للأمير فاسيلى :

– إذن أنت علمته فى الخارج يا أمير فاسيلى ؟ هه ؟

– لقد فعلت أقصى ما فى استطاعتى . وأؤكد لك أن التعليم هناك أفضل منه عندنا .

– نعم . فقد تغير كل شىء . وصار كل شىء على أحدث طراز . فتى مليح ! فتى مليح ! هيا بنا إلى حجرتى يا أمير .

وأمسك بذراع الأمير فاسيلى وقاده متوجهاً به إلى مكتبه . وما إن اختليا هناك حتى أفضى الأمير فاسيلى للأمير الشيخ برغباته وآماله ، فقال الأمير الشيخ بغضب :

– أتتخيل أننى أريد استبقاءها ولا أقدر على فراقها ؟ يا لها من فكرة ! بل أنا مستعد لفراقها منذ الغد ، ولكنى أولا أود أن أدرس زوج ابنتى المقبل وأعرفه معرفة أفضل . فأنت تعرف مبادئى : كل شىء يجب أن يكون على المكشوف . وغداً سوف أسألها فى حضورك ، فإن كانت لديها الرغبة فليبق معنا فترة . ليبق ، وسأنظر فى الأمر . ولتتزوج ، فهذا لا يضايقنى .

وكان صوته صارخاً عندما قال هذه الجملة الأخيرة ، بنفس نبرة صراخه عندما ودع ابنه قبل ذهابه إلى ميدان القتال .

وقال الأمير فاسيلى بذكانة الرجل الذى يعرف أنه لا جدوى من المكر مع رجل محنك ثاقب النظرة :

– سأكون صريحاً معك . فأنت نافذ النظرة إلى سرائر الناس .

هذا شىء أعرفه جيداً . أناتول ليس عبقرياً ، ولكنه فتى طيب القلب لا لؤم فيه ، وهو ابن بار ونسيب صالح .

– حسن . حسن جداً . سنرى !

* * *

وكما هو الحال دائماً مع النساء اللواتى قضين وقتاً طويلا فى عزلة بعيداً عن مجتمع الذكور ، ما إن ظهر أناتول على المسرح حتى شعرت النسوة الثلاث فى دار الأمير بلكونسكى الشيخ على السواء أنهن لم يحظين حتى هذه اللحظة بالحياة الحقيقية . وتضاعفت على الفور ملكات التفكير والشعور والملاحظة لديهن . وكأن حياتهن قبل هذا كانت فى الظلام الحالك ثم أضيئت على حين غرة بأنوار جعلت كل شىء يكتسب معنى جديداً .

ولم تكن الأميرة ماريا تتذكر قبلها أن لها وجهاً أو شعراً تصففه . وهى الآن لا تفكر فى ذلك أيضاً ، بل كل تفكيرها منحصر فى هذا الوجه الباش الوسيم الصريح الذى ربما غدا زوجها . واعتقدت أنه رقيق حنون ، وأنه شجاع حازم وكله رجولة وكرم خلق وسخاء وشهامة . بل إنها صارت مقتنعة بهذا كله . وصارت ألوف الرؤى من أحلام حياتها الزوجية تطفو بصورة متواصلة فى مخيلتها ، فتطردها وتحاول أن تخفيها عن نفسها .

وقالت الأميرة ماريا فى نفسها :

– ولكن أترانى شديدة البرود معه ؟ إنى أحاول كبح نفسى ،

لأنى أشعر فى قرارة فؤادى بأنى قريبة منه جداً . ولكنه بطبيعة الحال لا يعرف كل ما أعتقده فيه وأحس به نحوه ، وربما اعتقد أنى لا أستلطفه .

وحاولت وإن لم تعرف كيف تبدى له الود .

أما الآنسة بوريين ، التى أغرقها حضور أناتول فى لجة أفكار ومشاعر من الإثارة الشديدة ، فكانت أحلامها من نوع آخر . وطبيعى أن فتاة شابة جميلة ليس لها وضع محدد فى المجتمع ، وليس لها أصدقاء ولا أقارب ، بل وليس لها وطن ، لم تكن تصبو إلى أن تقف حياتها على العناية بالأمير الشيخ . أو أن تقرأ له الكتب ، وتكون صديقة للأميرة ماريا . بل إن الآنسة بوريين كانت منذ البداية تحلم بأمير روسى شاب وسيم تثق بأنه سيميز بسهولة بين جمالها وجاذبيتها وظرفها وأناقتها ، وبين الأميرة الروسية القبيحة السيئة المنظر والمظهر ، وتصبو إلى أن يقع فى غرامها ويهرب معها . وها هو الأمير الروسى الشاب قد جاء أخيراً . وتعرف الآنسة بوريين حكاية كانت قد سمعتها من عمتها ، نهايتها تتفق وذوقها ، ولذا كانت تحب أن تستعيدها فى مخيلتها . وهى حكاية فتاة أغواها شاب ، فجاءت إليها أمها الفقيرة المسكينة ووبختها لاستجابتها لأهواء رجل بغير زواج وكثيراً ما كانت تتأثر بوريين بهذه الحكاية وتبكى ، وهى تتخيل أنها تروى للرجل الذى سيغويها هذه الحكاية . والآن ها هو البطل المطلوب لقصتها قد ظهر ! إنه الأمير الروسى الشاب الوسيم الذى

سوف يهرب معها ، وعندئذ تظهر أمها المسكينة على المسرح ، فيستجيب لها الأمير ، ويتزوجها . وهذا ما كان يدور بخاطر الآنسة بوريين وهى تجاذب أناتول الحديث عن باريس . ولم تكن الآنسة بوريين منساقة للرغبة فى المكيدة بوحى الساعة ، بل كانت الرغبة أمنية قديمة كامنة وكاملة بحذافيرها فى دخيلة نفسها ، وكل ما هناك أنها أخذت الآن تتركز وتتبلور حول أناتول بمجرد ظهوره ، ولذا حاولت أن تجتذبه إليها ما استطاعت إلى هذا سبيلا .

أما الأميرة الصغيرة ، فكانت كجواد الحرب الذى طال به الاستجمام فى السلم ، فما إن سمع نفير الحرب حتى انبرى بكل الحماسة كذلك هى ! انبرت بكل الحماسة إلى المغازلة كما كانت عادتها فيما مضى ، ناسية تماماً وضعها ، ولكن بغير رغبة فى الشر . بل مدفوعة بخفتها الفطرية وحبها للمرح .

ومع أن أناتول كان من عادته فى مجتمع النساء أن يبدو الرجل الذى سئم المرأة ، ومل اهتمام النساء به ، إلا أنه تملق غروره أن يرى الأثر الذى أحدثه ظهوره فى هاتيك النسوة الثلاث . ثم إنه بدأ يشعر نحو الآنسة بوريين الحسناء المثيرة الجاذبية بشعور بهيمى عنيف . وكان هذا النوع من الإحساس يستولى عليه أحياناً بسرعة ، ويدفعه إلى أشد الأعمال تهوراً وحيوانية .

وبعد الشاى انتقلت المجموعة إلى حجرة الأرائك ، وطلب إلى الأميرة ماريا أن تعزف على المعزف العتيق ، واتكأ أناتول على كوعه

فى مواجهتها ، وبالقرب من الآنسة بوريين ، أما عيناه فكانتا مثبتتين على الأميرة ماريا ، وهما تفيضان بالضحك والحبور . وأحست الأميرة ماريا وقع نظراته عليها واضطربت أعماقها فى سرور . وحملتها سوناتتها المفضلة إلى عالم من الشاعرية الروحية ، وكانت نظراته تزيد من حرارة هذه الشاعرية وتحليقها .

ولكن مع أن نظرات أناتول كانت مركزة على الأميرة ماريا ، إلا أن معانيها كانت منصرفة إلى حركات قدم الآنسة بوريين الصغيرة التى كان يضغط عليها بقدمه تحت البيانو . وكانت الآنسة بوريين تنظر أيضاً إلى الأميرة ماريا ... ورأت فى عينيها تعبيراً جديداً عن الفرح الشديد الممزوج بالخوف .

وقالت الأميرة ماريا لما رأت نظرات الآنسة بوريين إليها :

— لكم تحبنى ! وكم أنا سعيدة الآن . وكم سأكون سعيدة مع هذه الصديقة وهذا الزوج ! ولكن أيمكن حقاً أن يغدو زوجى ؟

ولم تجسر على النظر إلى وجهه . ولكنها كانت تحس نظراته مثبتة عليها .

وبعد أن انفرط عقد الجماعة بعد العشاء ، لثم أناتول يد الأميرة ماريا . وكانت هى نفسها فى حيرة كيف واتتها الجرأة — ولكنها نظرت أمامها بعينيها القصيرتى النظر إلى الوجه الوسيم الذى اقترب منها . وبعد الأميرة انحنى على يد الآنسة بوريين (وكان هذا خرقاً للعرف « الإيتكيت » ولكنه كان يقدم على كل ما يفعل بنفس اليسر

والبساطة) واحمر وجه الآنسة بوريين احمراراً شديداً ونظرت فى فزع إلى الأميرة .

وقالت الأميرة ماريا فى نفسها :

— يا لها من رقة بالغة ! أيمكن أن يخطر ببال إميلى (اسم الآنسة بوريين) أن تظننى غيرى منها ، ويفوتنى أن أقدر حنانها وإخلاصها لى ؟

واتجهت إلى الآنسة بوريين وقبلتها بحرارة . وتحول الأمير أناتول إلى الأميرة الصغيرة التى قالت له :

— لا . لا . لا . عندما يكتب إلى والدك ويقول لى : إنك صرت حسن السير والسلوك ، عندئذ أعطيك يدى كى تقبلها !

وهزت فى وجهه أصبعها ، وغادرت الحجرة وهى تبتسم .

* * *

— ٥ —

وذهبوا جميعاً إلى حجراتهم . ولكن فيما عدا أناتول الذى غرق فى النوم منذ اللحظة التى دخل فيها إلى فراشه ، لم يستطع أحد منهم أن ينام لفترة طويلة لتلك الليلة . فالأميرة ماريا قالت فى نفسها :

— أمن الممكن أن يصير زوجى هـذا الغريب ، هذا الرجل الحنون الوسيم . نعم ! إنه حنون يقيناً !

واستولى عليها شعور بالذعر قلما شعرت بمثله ، فصارت تخشى أن تتلفت حولها ، لأنه خيل إليها أن أحداً موجود هناك — هو الشيطان . وأن الشيطان هو هـذا الرجل بجبينه الأبيض ، وحاجبيه السوداوين ، وشفتيه الحمراوين .

ورنت الجرس فاستدعت خادمتها وطلبت إليها أن تنام فى حجرتها .

أما الآنسة بوريين فراحت تذرع الحديقة الشتوية جيئة وذهاباً لفترة طويلة هذا المساء ، فى توقع غير مجد لحضور شخص ما . وفى وقت من الأوقات كانت تبتسم لهذا الشخص ، ولكن فى اللحظة التالية ترقرقت الدموع فى عينيها تأثراً عندما تخيلت أمها المسكينة وهى توبخها على زلتها .

وأما الأميرة الصغيرة فظلت تزمجر ساخطة لخادمتها لأن فراشها لم يمهد ويعد كما كان ينبغى . ولذا لم تستطع أن ترقد على جنبها ولا على وجهها ، لأنها شعرت بعدم الراحة والقلق فى كل وضع من

الأوضاع ، وكان حملها يرهقها هذه الليلة أكثر مما أرهقها فى أى وقت من الأوقات ، لأن وجود أناتول نقلها وأعادها بقوة إلى زمن آخر لم يكن كهذا الزمن ، كانت فيه خفيفة مرحة . وجلست على مقعد منخفض وهى مرتدية طاقية نومها . وقامت خادمتها كاتيـا — وهى مثقلة بالنعاس ومشعثة — بتقليب الحشية فى الفراش للمرة الثالثة وهى تغمغم شيئاً ما .

وكررت الأميرة الصغيرة كلامها :

— قلت لك مراراً : إنى أجد الفراش متكتلا ملآناً بالمرتفعات والمنخفضات والقلاقيل ! وأنا أتمنى أن أستطيع النوم . فالذنب ليس ذنبى ...

وارتجف صوتها كما يرتجف صوت طفلة على شفا البكاء .

وكذلك الأمير الشيخ لم يستطع النوم . وقد سمعه تيهون — وهو نصف نائم — يذرع الحجرة فى خطوات غاضبة ، وينظف أنفـه بصوت مسموع . فالأمير الشيخ كان يشعر بأن إهانة قد وجهت إليه من خلال ابنته . وكانت الإهانة أشد وأنكى لأنها لا تتعلق به شخصياً . بل بشخص آخر هو ابنته التى كان يحبها أكثر من نفسه . وقال لنفسه : إنه سيفكر فى الأمر كله بكل إمعان ويقرر ما هو صواب ، وما يجب عمله . ولكنه بدلا من هذا كان يذكى نيران غيظه وضيقه بصورة متزايدة ... كان يناجى نفسه على هذه الصورة :

— أول قادم بمحض الصدفة ! وعندئذ تنسى الأب وتنسى

كل شيء ، وتجرى صاعدة لتصفف شعرها ، وتتزين ، وتتبرج ، ولا تدرى ماذا هى صانعة ! إنها سعيدة لأنها سوف تهجر أباها ! وكانت تعلم أنى سألاحظ هذا كله ... أف ! وألم أر بعيني أن ذلك الأحمق لم تكن عيناه تريان إلا بوريين (ويجب التخلص منها !) . وكيف يمكن أن تنسى كبرياءها بحيث لا تلاحظ هى أيضاً ذلك ؟ إن لم تكن مستعدة أن تصون كرامتها شخصياً ، فعلى الأقل كان يجب أن تصون كرامتى أنا ! ولابد أن أريها أن هذا الأحمق لا يفكر فيها ، بل ينظر إلى بوريين فحسب ! إنها بدون كبرياء ولا كرامة ! ولكنى سأجعلها ترى ذلك بنفسها .

ولما استقر رأيه على أن يخبر ابنته أنها ترتكب خطأ ، وأن أناتول يغازل الآنسة بوريين ، أدرك أنه سوف يجرح كبرياءها وبذلك يتحقق هدفه (وهو عدم مفارقة ابنته) ، وعندئذ هدأت ثائرته ونادى تيهون وبدأ يخلع ثيابه .

وجعل يقول لنفسه وتيهون يلبسه قميص نومه فوق جسده الأعجف المغطى بالشعر الأبيض :

— الشيطان هو الذى جاء بهما إلى هنا ! أنا لم أدعهما للحضور ، ولكنهما جاءا ونغصا حياتى .

وكان قد فرغ تيهون من إلباسه القميص ، فنظر إليه الأمير الشيخ وسأله :

— هل أويا إلى الفراش ؟

وكان تيهون — مثل كل الخدم الأذكياء — يعرف بالسليقة اتجاه تفكير سيده ، فأدرك أنه يعنى بالسؤال الأمير فاسيلى وابنه ، فقال :

— صاحبا الفخامة أويا إلى فراشهما وأطفئا النور يا صاحب السعادة .

فقال الأمير بسرعة :

— لم يكن من حقهما ...

ثم دس قدميه فى الخف ، وكميه فى الروب ، واتجه إلى المضجع الذى كان من عادته دائماً أن ينام عليه .

* * *

ومع أنه لم يحدث أى كلام مباشر بين أناتول والآنسة بوريين ، إلا أن كل واحد منهما فهم الآخر جيداً فيما يتعلق بالمرحلة الأولى من العلاقة الرومانسية ، وهى المرحلة السابقة على موقف الأم المسكينة . وشعرا أن كلا منهما لديه الشيء الكثير ليقوله لصاحبه على انفراد ، ولذا بحثا منذ الصباح الباكر عن فرصة للقاء . فبينما كانت الأميرة ماريا تمضى كعادتها ساعة فى باكورة الصباح مع أبيها ، كانت الآنسة بوريين تقابل أناتول فى الحديقة الشتوية .

وفى ذلك اليوم توجهت الأميرة ماريا إلى باب مكتب أبيها وهى أشد ارتجافاً من سائر الأيام . ولم تكن تحس فقط أن هذا اليوم قد يتقرر فيه مصيرها ، بل أحست أيضاً أن الجميع يدركون شعورها من هذه الناحية . وقرأت هذا واضحاً فى وجه تيهون ، وفى وجه

حاجب الأمير فاسيلى ، الذى قابلها فى الدهليز حاملا الماء الساخن ، وانحنى لها انحناءة كبيرة .

وكان الأمير الشيخ فى هذا الصباح بادى الرقة والإعزاز لها ، وإن كان متوتراً . وكانت الأميرة ماريا تعرف جيداً أمارات هذا التوتر على وجه أبيها . وهى نفس الأمارات التى كانت تراها عندما يغتاظ لأن الأميرة ماريا لم تفهم مسألة حسابية كان يدرسها لها ، فترتجف يداه وتتقبض أصابعه من شدة الانفعال ، ثم ينهض ويبتعد عنها ، وهو يكرر نفس الكلمات عدة مرات بحذافيرها فى صوت منخفض .

واتجه إلى لباب الموضوع مباشرة وبدأ يتكلم بابتسامة غير طبيعية :

— لقد قدم لى طلب ليدك . وأعتقد أنك حدست هذا ، وفهمت من تلقاء نفسك أن الأمير فاسيلى لم يحضر إلى هنا ولم يأت معه بهذا الشاب (ولسبب ما أشار الأمير إلى أناتول على هذه الصورة) حباً فى سواد عينى أنا . وبالأمس تقدم لى بطلب يدك رسمياً . وأنا جرياً على مبادئى التى تعرفينها جيداً أحيل الأمر إليك .

فشحب وجه الأميرة ثم احمر ، وقالت :

— وكيف عساى أفهمك يا أبى ؟

فصاح الأب غاضباً :

— كيف تفهميننى ؟ الأمر وما فيه أن الأمير فاسيلى يراك ملائمة لذوقه كزوجة لابنه ، وقد طلب يدك لابنه . هذا ما يجب أن تفهميه . كيف تفهمه ؟ عجباً ! وأنا أسألك .

فقالت الأميرة همساً :

— لست أدرى ما رأيك يا أبى ...

— أنا ؟ أنا ؟ وما شأنى أنا ؟ أخرجينى من هذا الموضوع . فلست أنا الذى سيتزوج . ما رأيك ؟ هذا ما أرغب فى معرفته . ،

ورأت الأميرة أن والدها ينظر بعين السخط إلى هذا المشروع ، ولكن فى هذه اللحظة خطر لها أيضاً أن مصير حياتها سيتقرر الآن أو لن يتقرر أبداً ، فأسبلت عينيها حتى تتجنب نظرته التى أحست أنها لن تستطيع التفكير تحت سلطانها ، ولن تكون قادرة إلا على ما تعودته من الطاعة . وقالت له :

— إن رغبتى الوحيدة أن أنفذ رغباتك . وإذا كان لى أن أعبر عن رغبتى ...

ولم يتسع لها الوقت كى تتم عبارتها ، لأنه بترها بصياحه :

— ليكن إذن . سيأخذك ببائنتك ، ويقتنص أيضاً الآنسة بوريين « فوق البيعة » . ستكون هى زوجته ، فى حين تكونين أنت ...

وتوقف الأمير عن الكلام . فقد لاحظ تأثير كلماته على ابنته ، فقد خفضت رأسها وأخذت فى البكاء . فقال :

— على رسلك ! على رسلك ! إنما كنت أمزح ! تذكرى شيئاً واحداً يا أميرة ، أننى متمسك بمبادئى ، وأرى أن من حق الفتاة أن تختار . وأنا أعطيك مطلق الحرية . وتذكرى شيئاً واحداً : أن سعادة حياتك تتوقف على قرارك . ولا داعى للكلام عنى .

– ولكنى لا أعرف يا أبى ...

– لا داعى للكلام ! فهو يصدع بما يؤمر به ، ومستعد للزواج من أى واحدة . أما أنت فحرة فى الاختيار ... اذهبى إلى حجرتك وفكرى فى الأمر ، وعودى إلى بعد ساعة ، وأخبرينى فى حضوره . إما نعم وإما لا . وأنا أعلم أنك ستصلين إلى الله كى يرشدك . ليكن ! صلى إن شئت . ولكن الأفضل لك أن تستخدمى عقلك . والآن لك أن تنصرفى .

وصاح مرة أخرى والأميرة فى طريقها إلى الباب ، وهى كمن تترنح فى ضباب :

– نعم أو لا . لا أو نعم ! ...

لقد تقرر مصيرها ، وهو قرار بالسعادة . ولكن ما قاله أبوها عن الآنسة بوريين كان تلميحاً فظيعاً . وهو ليس صحيحاً بالطبع ، ولكنه فظيع مع هذا . ولن تمالك نفسها من التفكير فيه . ومضت من فورها مخترقة الحديقة الشتوية ، وهى لا ترى ولا تسمع شيئاً ، وإذا بها تفيق من شرودها على صوت الآنسة بوريين المألوف ، فرفعت عينيها ، وعلى بعد خطوتين منها فقط رأت أناتول وذراعاه حول المرأة الفرنسية ، يهمس فى أذنها بشىء ما . والتفت أناتول وعلى وجهه الوسيم أمارات الفزع فرأى الأميرة ماريا . وللوهلة الأولى لم يفلت خصر الآنسة بوريين ، التى لم تكن رأتها .

وكان التعبير الذى على وجه أناتول كأنه يقول :

– من هناك ؟ انتظر قليلا ! ماذا تريد ؟

وحدقت فيهما الأميرة ماريا بنظرة خالية من كل تعبير . فهى لم تستطع أن تصدق عينيها . وأخيراً صرخت الآنسة بوريين وولت هاربة ، وبابتسامة مرحة انحنى أناتول للأميرة ماريا ، كأنما يدعوها لتشاركه استمتاعه بهذا الحادث الغريب . وبهزة من كتفيه اتجه نحو الباب المؤدى إلى جناحه .

وبعد ساعة جاء تيهون ليدعو الأميرة ماريا للمثول أمام الأمير الشيخ ، وقال لها : إن الأمير فاسيلى موجود معه . وعندما جاءها تيهون كانت الأميرة ماريا جالسة على الأريكة فى حجرتها الخاصة وبين ذراعيها الآنسة بوريين التى كانت تنتحب . والأميرة ماريا تربت على شعرها برقة . وقد استعادت عيناها كل ما كان معهوداً فيهما من صفاء السلام والدعة ، وهى تنظر بمحبة حانية ورثاء إلى وجه الآنسة بوريين الصغير الجميل ، التى كانت تقول :

– أوه يا أميرة ! لقد تحطمت فى قلبك إلى الأبد ...

فقالت لها الأميرة ماريا :

– لماذا ؟ أنا أحبك أكثر من ذى قبل . وسأفعل كل ما فى وسعى لسعادتك .

– ولكنك تحتقريننى . إنك لن تفهمى أبداً هذه الفورة العاطفية . أوه ! يا لأمى المسكينة !

فقالت الأميرة ماريا باسمة فى أسى :

— بل أنا فاهمة كل شيء . اهدئى يا عزيزتى . أنا ذاهبة الآن إلى أبى .

ونهضت منصرفة .

وعندما دخلت الأميرة كان الأمير فاسيلى جالساً وقد وضع ساقاً فوق ساق . فى يده علبة سعوط . وكانت على وجهه ابتسامة تنبئ عن انفعال ، وكان يبدو متأثراً لدرجة أثارت أسفه لهذا الضعف ، فابتسم ليدارى حرجه . وتناول نشقة من السعوط . ونهض واقفاً وتناول يديها كلتيهما ، وصعد زفرة ثم قال لها :

— إن مصير ابنى بين يديك . قررى يا عزيزتى الطيبة ، يا مارى الحلوة التى كنت دائماً أحبها كما لو كانت ابنتى .

وتراجع إلى الخلف ، وقد ترقرقت فى عينه دمعة بالفعل .

ونخر الأمير الشيخ ، وقال :

— إن الأمير تقدم — باسم ابنه — يطلب يدك فهل أنت تريدين أم لا أن تكونى زوجة الأمير أناتول كوراجين ؟ قولى : لا أو نعم ! أما أنا فأحتفظ لنفسى برأيى الخاص .

ونظر الأمير فاسيلى إلى الأمير الشيخ نظرة كلها توسل . فقال الشيخ :

— قولى أنت : لا أو نعم !

فقالت الأميرة بحزم ، وهى تنظر بعينيها الجميلتين إلى الأمير فاسيلى وإلى أبيها :

— رغبتى يا أبى ألا أفارقك أبداً . وألا أفصل أبداً حياتى عن حياتك . أنا لا أرغب فى الزواج !

فصاح الأمير الشيخ مقطباً :

— لغو فارغ . هراء ! لغو ! لغو !

وتناول يد ابنته وجذبها نحوه ولم يقبلها ، بل انحنى فوقها ولمس جبينها بجبينه ، وهصر يدها فى يده بعنف حتى أجفلت وأطلقت صيحة ألم . ونهض الأمير فاسيلى قائماً وقال :

— يا عزيزتى ! هذه لحظة لن أنساها أبداً . أبداً يا عزيزتى . ولكن أفلا تمنحيننا لمحة من الأمل فى أن نلمس قلبك الرحيم الكريم فى المستقبل . قولى ربما ... فالمستقبل فسيح جداً ... قولى ربما .

فأجابت قائلة :

— يا أمير . ما قلته الآن هو كل ما فى قلبى . وأنا أشكرك على الشرف الذى أوليتنى إياه . ولكنى لن أصير أبداً زوجة ابنك !

وقال الأمير الشيخ :

— ها قد انتهى الموضوع يا عزيزى ! وقد أسعدنى أن أراك . أسعدنى أن أراك . اذهبى إلى حجرتك يا أميرة .

وعاد يكرر للأمير فاسيلى وهو يعانقه :

— أسعدنى جداً جداً أن أراك .

وقالت الأميرة ماريا بينها وبين نفسها :

— رسالتى فى الحياة تختلف عن هذا . رسالتى أن أسعد عن

طريق إسعاد الآخرين ، سعادة المحبة وإنكار الذات . وعلى كل حال سأعمل على إسعاد إميلى (الآنسة بوريين) ، فهى تحبه حباً متقداً . وهى أيضاً نادمة من كل قلبها على ما فعلت . وسأعمل كل ما فى وسعى على تحقيق زواجها به . وإذا لم يكن غنياً سأعطيها أنا المال . سأرجو فى ذلك أبى ، وسأرجو أندريه . وسأكون سعيدة جداً عندما تغدو هى زوجته . إنها شقية جداً ، فهى غريبة هنا . ووحيدة ولا حيلة لها ولا حول ولا طول ! آه يا ربى ! كم لابد أنها تحبه حتى أنها نسيت نفسها . ولعلى لو كنت مكانها كنت صنعت عين ما صنعت هى !

* * *

- ٦ -

كان قد انقضى وقت طويل لم يتلق فيه آل روستوف أنباء من نيقولوشكا (تدليل نقولا) . ولكن فى منتصف الشتاء تسلم الكونت روستوف رسالة ، عرف على مظروفها خط ابنه . وما إن تسلم الكونت الرسالة حتى أسرع فزعاً يجرى على أطراف أصابعه إلى حجرته ، محاولا أن يتجنب لفت الانتباه إليه ، وأغلق على نفسه الباب وقرأ الرسالة . وكانت أنا ميها لفنا قد عرفت (كما تعرف دائماً كل ما يجرى فى البيت) أنه تلقى رسالة ، فمشت بخفة ودخلت على الكونت فوجدته والرسالة فى يده ، يبكى ويضحك فى آن واحد . ومع أن ظروف أنا ميهالفنا تحسنت كثيراً ، إلا أنها لم تزل مقيمة فى دار آل روستوف .

وقالت أنا ميهالفنا بصوت حزين متسائل ، على استعداد للتعاطف فى أى اتجاه :

— ماذا هناك يا صديقى العزيز ؟

فبكى الكونت بمزيد من العنف ، وقال :

— نيقولوشكا ... خطاب ... مجروح ... ابنى الحبيب جريح ... الكونتس الصغيرة ... ونال ترقية ... الحمدلله ... كيف نخبر الكونتس الصغيرة الآن ؟

وجلست أنا ميهالفنا بجواره ، وبمنديلها مسحت الدموع من عينيه

وعن الخطاب ، ثم جففت دموعها، وقرأت الخطاب ، وهدأت الكونت، وقررت قبل الغداء، وقبل تناول الشاى أن تهيئ الكونتس لتلقى النبأ ، ثم بعد الفراغ من الشاى ستستعين الله وتخبرها . وأثناء تناول الغداء تحدثت أنا ميهالفنا عن الشائعات التى تقال عن الحرب ، وعن نقولا العزيز ، وسألت مرتين متى وصل آخر خطاب منه ، مع أنها كانت تعرف كل هذا جيداً ، ثم قالت عرضاً : إنهم ربما تلقوا منه إن شاء الله رسالة هذا اليوم . وكلما أحست الكونتس القلق تحت تأثير هذه التلميحات كانت تنقل بصرها فى رجفة ذعر بين الكونت وأنا ميهالفنا ، فكانت أنا ميهالفنا تغير مجرى الحديث بصورة غير ملحوظة إلى موضوعات لا أهمية لها . أما نتاشا التى كانت أقدر من فى هذه الأسرة على الإحساس بثنايا النبرات وطوايا النظرات والتعبيرات والأمارات التى ترتسم على الوجوه ، فقد تيقظت فطنتها منذ بداية الغداء ، وأيقنت أن هناك سراً ما بين أبيها وأنا ميهالفنا ، وأن هذا السر له علاقة بأخيها ، وأن أنا ميهالفنا كانت تمهد الطريق للبوح به . وكانت نتاشا تعلم إلى أى حد تنزعج أمها عند أى إشارة إلى أنباء من نقولا ، وبرغم ما اتسمت به من اندفاع لم تجازف بتوجيه أى سؤال . ولكنها لشدة ما أحسته من إثارة عصبية لم تكد تأكل شيئاً فى الغداء ، وظلت تتململ فوق مقعدها ، غير ملقية بالها إلى احتجاج مربيتها . وبعد الغداء اندفعت مباشرة لتدرك أنا ميهالفنا ، وفى حجرة الأرائك ارتمت على عنقها وهى تقول :

— عمتى العزيزة ! قولى لى ما هو الموضوع !

— لا شىء هناك يا عزيزتى .

— لا يا حبيبتى . يا خوختى الثمينة ! لن أتركك . فأنا أعرف أنك تعرفين شيئاً .

فهزت أنا ميهالفنا رأسها وقالت :

— أنت لماحة ، يا طفلتى !

فصاحت نتاشا وقد قرأت فى وجه آنا ميهالفنا ما يؤيد حدسها :

— خطاب من نقولنكا ؟ كنت واثقة بهذا !

— ولكن بحق الله كونى حذرة . فأنت تعرفين أى صدمة يمكن أن تحدث لماما .

— سأكون حذرة . سأكون . ولكن خبرينى ماذا فى الخطاب؟ ألن تخبرينى ؟ إذن سأذهب فى هذه اللحظة إليها وأخبرها .

فروت أنا ميهالفنا لنتاشا خلاصة ما فى الخطاب ، شريطة ألا تخبر أى إنسان . فقالت نتاشا وهى ترسم الصليب على صدرها :

— أقسم بشرفى ! لن أخبر أحداً ..

وجرت على الفور إلى سونيا وصاحت بحبور :

— نقولنكا ... جريح ... خطاب منه !

— نقولنكا !...

وكان هذا كل ما استطاعت سونيا أن تتفوه به ، وشحب لونها

غاية الشحوب . ولما رأت نتاشا تأثير نبأ جرح أخيها على سونيا ، أدركت لأول مرة الجانب المؤلم فى هذا النبأ .

واندفعت إلى سونيا فاحتضنتها وبدأت تبكى وتقول لها من خلال دموعها :

– جرح صغير .. ولكنه رقى ضابطاً .. وهو الآن بخير ، وهو الذى كتب الخطاب بيده .

وقال بتيا الصغير وهو يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً بخطى ثابتة :

– واضح أنكما مجرد طفلتين بكاءتين ! أما أنا فمسرور جداً . مسرور جداً حقاً لأن شقيقى قد أثبت امتيازه . ولكنكما تبكيان ، ولا تفهمان شيئاً من معنى البطولة .

فابتسمت نتاشا من خلال دموعها . وسألتها سونيا :

– ألم تقرئى الخطاب ؟

– كلا ولكنها أخبرتنى بكل ما جاء فيه . وهو الآن ضابط .

فقالت سونيا وهى ترسم الصليب على صدرها :

– حمداً لله ! ولكن ربما خدعتك . فلنذهب إلى ماما .

وكان بتيا ما يزال يتبختر جيئة وذهاباً فى صمت ، فقال :

– لو أننى كنت مكان نقولنكا لكنت قتلت عدداً من أولئك الفرنسيين أكثر ممن قتلهم . إنهم وحوش ! لو كنت هناك لقتلتهم وجعلت من جثثهم كومة !

– اسكت يا بتيا ! يا لك من أحمق ! ..

فقال بتيا :

– أنا لست أحمق ! الحمقى هم الذين يبكون على التفاهات !

وسألت نتاشا سونيا فجأة ، بعد لحظة صمت :

– أتتذكرينه ؟

فابتسمت سونيا وقالت :

– أأتذكر نقولنكا ؟

– أعنى هل تتذكرينه كأنه ماثل أمامك ؟ أما أنا فأتذكر نقولنكا . أتذكره تماماً ، ولكنى لا أتذكر بوريس . لا أتذكره إطلاقاً !

فسألتها سونيا بدهشة :

– ماذا ؟ ألا تتذكرين بوريس ؟

– لست أعنى أنى لا أتذكره . فأنا أعرف ما هو شكله ، ولكنى لا أتذكره كما أتذكر نقولنكا . فعندما أغلق عينى أستطيع أن أرى نقولنكا . ولكنى لا أرى بوريس (وأغلقت عينيها) كلا ! لا شىء .

فقالت سونيا وهى تنظر إلى صديقتها بجد ، كأنها تجدها غير جديرة بأن تسمع ما تنوى أن تقوله ، بل هى تقوله لشخص لا مجال للهزل معه :

– آه يا نتاشا ! لقد أحببت أخاك من كل قلبى ، ومهما حدث له أو لى ، فلن أتوقف عن حبه ما حييت !

وحدقت نتاشا فى سونيا بعينين مندهشتين متسائلتين ، ولم تقل

شيئاً ، فقد شعرت بأن ما تقوله سونيا هو الحقيقة ، وأن هناك فعلا حباً مثل الحب الذى تتحدث عنه سونيا . ولكن نتاشا لم تعرف قط شيئاً كهذا . صدقت أن هذا ممكن ، ولكنها لم تفهمه . وسألت سونيا :

— أستكتبين إليه ؟

وغرقت سونيا فى التفكير ، أتكتب إليه ؟ وهل يجوز لها هذا ؟ ذلك سؤال حيرها . أمن حقها أن تذكره بنفسها الآن وقد صار ضابطاً وبطلا ؟ أما عن عهوده لها ، فهذه مسألة تخصه . وقالت وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل :

— لا أدرى . أظنه إذا كتب إلى ، سأكتب له .

— ولن تخجلى من الكتابة إليه عندئذ ؟

فابتسمت سونيا وقالت :

— لا .

— أما أنا فأخجل أن أكتب إلى بوريس ، ولن أكتب إليه .

— ولكن ماذا يخجلك ؟

— لا أدرى . سأشعر بالحرج ، والخجل .

فقال بتيا مدفوعاً باستيائه من ملاحظة نتاشا السابقة :

— أنا أعرف لماذا ستخجل . ذلك أنها وقعت فى غرام ذلك الشخص البدين الذى يلبس نظارة ! (فقد كان هكذا تعود بتيا أن يصف سميه الكونت بيزوهوف الجديد) وهى الآن تحب ذلك المغنى (يقصد المدرس الإيطالى الذى يعلم نتاشا الغناء) هذا هو سبب خجلها .

فقالت نتاشا :

— بتيا . أنت غبى !

فقال ابن التاسعة ، وكأنه قائد لواء مسن :

— لست أغبى منك يا سيدتى !

* * *

وكانت الكونتس قد استعدت للنبأ عن طريق تلميحات أنا ميهالفنا أثناء الغداء . وعند عودتها إلى حجرتها جلست على مقعد منخفض ، مثبتة العينين على صورة ابنها الصغيرة المرسومة على علبة سعوطها ، وطفرت الدموع إلى عينيها . وأقبلت أنا ميهالفنا بالخطاب نحو حجرة الكونتس على أطراف أصابعها ، ووقفت عند الباب ، وقالت للكونت الذى كان يتبعها :

— لا تدخل الآن . تعال فيما بعد ..

ووضع الكونت أذنه على ثقب المفتاح وأنصت . وفى البداية سمع أصداء حديث فى موضوعات لا أهمية لها ، ثم صوت أنا ميهالفنا وحده فى حديث طويل . ثم صرخة . ثم صمت . ثم صوت الاثنتين تتحدثان فى آن واحد بنبرات مفرحة ، ثم وقع خطوات ، وفتحت أنا ميهالفنا الباب ، وعلى وجهها زهو الجراح الذى أجرى عملية بتر ناجحة ، ويدعو الجمهور لمشاهدة دلائل براعته . وقالت للكونت بفخر ، وهى تدفع به نحو الكونتس التى كانت ممسكة بإحدى يديها علبة السعوط التى بها الصورة ، وبالأخرى الخطاب ، وتضغط

بشفتيها على الصورة ثم على الرسالة . وما إن رأت الكونت حتى مدت له ذراعيها ، وقبلت رأسه الأصلع ، ونظرت ثانية من فوق الرأس الأصلع إلى الرسالة والصورة ، ولكى تقبلهما دفعت صلعة الكونت بعيداً عنها بعض الشيء .

ودخلت فيرا وناتاشا وسونيا وبتيا إلى الحجرة ، وبدأت تلاوة الرسالة . وكانت تتضمن وصفاً موجزاً للزحف والمعركتين اللتين اشترك فيهما نقولنكا ، وترقيته ، وقال : إنه يقبل يدى ماما وبابا ويلتمس بركتهما ، ويبعث قبلاته إلى فيرا وناتاشا وبتيا . ويرسل تحياته أيضاً إلى المسيو شلنج Schelling ومدام شلوس Schloss ، وإلى مربيته العجوز ، وطلب إليهما أن تقبلا نيابة عنه سونيا التى يحبها ولم يزل يفكر فيها كذى قبل . وما إن سمعت سونيا هذه العبارة حتى احمر وجهها ودمعت عيناها ، ولم تستطع تحمل العيون المثبتة عليها ، فجرت إلى البهو الكبير محمرة الوجه باسمة المحيا ، وراحت تدور حول نفسها دوراناً سريعاً ، حتى غدت تنورتها كالبالون . أما الكونتس فكانت تبكى . فقالت فيرا :

— ماذا يبكيك يا ماما ؟ كل ما كتبه يدعونا للفرح لا للبكاء .

وكان هذا صحيحاً . ولكن الكونت والكونتس وناتاشا نظروا إليها بتأنيب . وتساءلت الكونتس :

— ترى ممن ورث هذا الطبع ؟

وأعيدت تلاوة خطاب نقولنكا مئات المرات ، وكل من رؤى أنه أهل لسماعه كان عليه أن يأتى إلى حجرة الكونتس التى لم تترك الخطاب من يدها . فجاء المؤدبون ، والمربيات ، وميتنكا Mitenka وعدد من المعارف . وفى كل مرة كانت الكونتس تتلو الخطاب بفرح متجدد ، وفى كل مرة كانت تكتشف فى ابنها مزايا جديدة . فكم كان غريباً فى نظرها ومبهجاً أن ابنها الصغير الذى حملته فى بطنها قبل عشرين سنة ، وكثيراً ما تشاجرت مع الكونت لأنه كان يدلله : هذا الابن الصغير صار الآن فى بلاد أجنبية ، فى بيئة غريبة ، وصار محارباً شجاعاً شهماً ، وحيداً بلا معين ولا مرشد ، يؤدى واجبه الرجولىّ ببسالة . فلم يكن لكل تجربة القرون الماضية التى شهدت نمو الأطفال ليصيروا رجالا أشداء وجود . لذا رأت مراحل نموه شيئاً خارقاً للطبيعة ، كأنما لم يشب من قبله على هذا النحو ملايين وملايين من الشباب ، تماماً كما كانت قبل عشرين عاماً ، وهى تحمله فى أحشائها ، لا تصدق أنه سيخرج للدنيا ويرضع ثديها . كذلك لم تكن تصدق أن الطفل الصغير سيصير شاباً فتياً ذا بأس وشأن . وها هو صار كذلك ! وفى يدها البرهان : رسالته بخط يده .

وقالت بإعجاب للمرة المائة :

— ما أروع أسلوبه ! وما أبدع وصفه لكل شىء ! ويا لشهامته ! لم يقل كلمة واحدة عن نفسه ، ولكنه قال الكثير عن رجل اسمه

دزينوف ! مع أنى أقطع بأنه كان أشجع منه ! ولم يكتب كلمة واحدة عن آلامه ! يا له من نبل ! لقد كنت أقول دائماً وهو لم يزل طوله شبراً إنه ...

وانقضى أسبوع كامل فى عمل دائب لكتابة خطاب إلى نقولنكا من الأسرة كلها . فكم من مسودة كتبت . ثم تبيض ، ثم يكتب غيرها ، لأن استدراكات الكونتس والكونت لم يكن لها آخر ، وتم تدبير المال كى يتجهز ويشترى ثياب الضباط وعتادهم . وكانت أنا ميهالفنا قد استطاعت بمهارتها أن ترتب وسائل فى قيادة الجيش لتوصيل الرسائل إلى ابنها ، عن طريق الدوق قسطنطين بفلوفتش Pávlovitch قائد عام الحرس بجبهة القتال . واعتقد آل رستوف أن تلك وسيلة مضمونة لوصول رسالتهم إلى نقولنكا الذى كان آلايه قريباً من مركز القائد العام . وهكذا أرسلت الخطابات والنقود باسم بوريس ليتولى توصيلهما إلى نقولنكا . وكان هناك خطاب من الكونت والكونتس . وخطاب من فيرا وناتاشا وبتيا وسونيا ، ومبلغ ستة آلاف روبل للعتاد ، وأشياء كثيرة أخرى أرسلها الكونت إلى ابنه .

* * *

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٦ــ ٠٨٠ ــ ١٦٣ ــ ٩٧٧

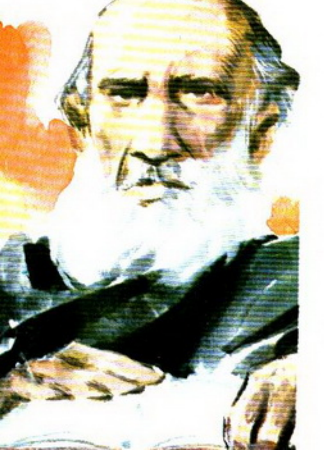


عزيزي القارئ ..

في الكتابين رقمي ٥ و ٦ من الإصدار الجديد لسلاسل (كتابي)، قدمت لك الجزأين الأول والثاني من أول ترجمة عربية كاملة لملحمة (تولستوي) الجبارة (الحرب والسلام)، التي تعد أعظم ما كتب هذا العملاق من عمالقة الأدب الروسي، وقد كتبها (تولستوي) خلال السنوات الخمس من ١٨٦٤ ـ ١٨٦٩، وصور فيها الصراع المحتدم بين فرنسا بزعامة قائدها المحارب الشهير (نابليون بونابرت)، وبين روسيا بقيادة البطل المغوار الجنرال (كوتوزوف)، وذلك قبل سنوات من المعركة الكبرى في (أوسترلتز). وكما يتوقع من واحد من ألمع الروائيين في العالم، فإن الحرب لا تعالج فقط كمجرد حدث درامي، وإنما أيضًا كرمز لقوى اجتماعية عظمى تكافح من أجل التعبير عن نفسها. فالرواية هي مزيج من التأمل اللاعقلاني، والواقعية. وقد صور (تولستوي) فيها بشاعة المعارك الحربية، ومشاعر الجنود المتحاربين، ببراعة وقوة لا نظير لها، بحيث تترك الرواية في عقل القارئ تأثيرا يقرب من إدراكه لأحداثها فيما لو عايشها وسط دخان المعركة ولهيب القتال، بحيث يحتفظ منها بذكريات باهتة مبهمة. ولكن أهم انطباع تخلفه قراءتها هو الإيمان بالقدرية التي تؤثر في مصائر أبطالها، والدور الذي تلعبه المصادفات في جميع المعارك الحربية!

فتعال الآن نواصل قراءة الترجمة الكاملة للرواية، من حيث تركناها في نهاية الكتاب رقم ٦، الذي تضمن الجزء الثاني من الترجمة.

حلمي مراد



قرش جنيه